اختراقات الهوى والتهلكة

نزوات روائية

ادوار الخراط

دار الآداب

اختراقات الهوى
والتهلكة

اختراقات الهوى والتهلكة

(نزوات روائية)

ادوار الخراط

دار الآداب

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٩٣

«In the foul rags - and - bone shop of the heart»

W. B. Yeats

«في دكّان الخردة والروبابيكيا الفاحشة التي تملأ القلب».

وليام بتلر ييتس

النزوة الأولىٰ

إثم متكرّر قديم

كان فريد الأطرش ينوح بشجنه المصنوع على شاشة التليفزيون.

وكنت محموماً أخوض غمار هذيان شتويّ عنيد.

شفتا المطرب الذي مات من زمان مازالتا شفرتين لا لحم فيهما وتسيلان بميوعة عذبة، وهو يخرج لنا أحشاء قلبه المفرغ في دوزنة العود وشجى الكمنجة المتهافت.

أحبابنا يا عين

راحوا وفاتونا

كنت أراه، أحياناً نادرة جدّاً، أحيّيه في السلّم النظيف الهادئ، في بيت شارع فرنسا. أو يدخل ليسلّم وأنا عند صديقي أنطوان وأختيه أوديت وآرليت شكر الله. كانت رائحة الطبيخ الشامي - الكبيبة أو كباب الحلّة أو الحمص بالطحينة - تفوح منه، ومن البيت كلّه، رغم الكولونيا الثقيلة، والبريانتين اللامع وأناقة الكرافته المعقودة على سِنْجة عشرة والحفلطة العموميّة التي تشي بشياكة موظّفين على قدّ حالهم، في شركات مثل كوبّانيّة النور ليبون، أو شركة الملح والصودا. هم دون چوانات قشرة، عِبرة، ليس في دخيلتهم إلاّ حسبة القرش والمليم، نقداً وعاطفة على السواء. لعب البوكر حتى الصبح

ليلة السبت، الرقص مع البنت - أيّ بنت - في النادي اليوناني - وليس في النادي السوري - أو كازينو الأمبسادير.

خرج إليّ جورج من الشاشة المهتزّة بخطوط النور الملوّنة.

هل كان اسمه جورج، هنري، جوزيف، أم ماذا؟

بعد أربعين سنة، كان معي، يغنّي.

الخالق الناطق فريد الأطرش، قامته القصيرة، والبنطلون الواسع أبو حمّالات المشحوط عالياً على وسطه الممتلئ، جاكتته الضيّقة، والنظرة الرازحة بحسابات حسّيّة.

وخرجت معه أوديت، بعد أربعين عاماً.

كأنّني رجعت إلى بَعْد ظُهريات الشتاء المتأخّرة، أصحو من وخم النومة الدافئة في بيت شارع ابن زهر، وأنزل - كما أنزل كلّ يوم تقريباً - آخذ ترام راغب باشا الذي يتهادى لامعاً ونصف فارغ لغاية المنشيّة. ثمّ أمشي، محاذراً أن يتترّب حذائي المصقول بالورنيش بعناية، مازالت له رائحة خفيفة، وأنسرب في الشوارع الجانبيّة الواسعة، بعد شركة بيع المصنوعات وقبل زنقة الستّات بالضبط، حتّى مدخل البيت الذي أجده منيراً بلمبة كبيرة خافتة، والزرع اليانع، على ناصيتيْ السلّم في الفَسحة الواسعة، كبير الورق في أصص نحاسيّة تنعكس على صفرتها الزاهية إشعاعات نور السلّم.

أوديت تفتح لي الباب، هي التي تفتح دائماً تقريباً، كأنّها تعرف وقع خطاي على الدرج، أو تنتظرني في هذا الموعد بالذات. تعطيني يدها الصغيرة الحاذقة الأصابع، وتضغط على يدي بنصف ابتسامة في

عينيها الصغيرتين الحادَّتين. فقط. هذا كلّ التواطؤ الـذي بيننا، دون إفصاح.

كان جورج، إذن (سـوف أُسمِّيه جـورج) عندمـا يدخـل ينظر إليّ نظرة متآمر، ساكتـة. كأنّـه يقول: نحن نفهم أحـدنا الآخـر، أليس كذلك؟

ما أقلّ حصاد الحسابات الحسّيّة الذي جنيتُه من كلّ هذه الحكاية، مع ذلك.

وما كان أكثر التحوُّط والعناية بألاّ أتورّط.

لقاءات، في سياق أفلام چان كوكتو وچان ماريـه، في عتمة سينـما فؤاد، يدي على حجرها، أو الشاي في حديقة التريـانون الصغـير، أو كـأس نبيذ أبيض في بـرج الاسكـارابيـه الـذي تحـوّل الآن إلى بـرج السرايا، على حـافّة غـواية البحـر الزرقـاء الضاربـة، وهي ساجيـة، تومض في آخر الظهر.

فقط.

لم أعرف أبداً طعم الشفتـين الحسَّاستـين الرقيقتـين والفم الذي لم يقل لي أبداً كلمة حبّ.

لم أعدها قط بشيء من ناحيتي، ولم أُلِح، حتّى، إلى أكـثر من هذه الصداقة الغريبة التي لا هي غـراميّة ولا هي بـريئة تمـاماً، والتي كنّـا نداريها ونساتر بها، مع ذلك.

حبيب العمر حبّيتك
وضيّعت معاك عمري

ما وجهكِ؟ من أنتِ؟

تنهضين من القبر، قبر الذاكرة أم القبر الأمّ الرؤوم النهمة إلى ثُوِيِّ كلّ أبنائها وبناتها في حضنها الرطيب؟

رأسها الدقيق مهدّل الجلد قليلاً مليء بالغضون، رأس خفّاش، مدوّر، بعينين لا يغمض جفناهما أبداً.

أمّا جسمها الذي لم أعرف طلاوته قطّ فهو الآن بين ساقيّ، ناعماً، ناتئ الثديين، صلب المكسر. عشتار الاسكندرانيّة رخاميّة القوام قد غرزت فمها تحت جلدي، تمتصّ دمي.

أضرب في التيه والهذاء، أكثر من أربعين خمسين سنة، تقفين إلى سريري الآن، لا تتكلّمين، وغناء المطرب الجار الموظّف الشامي يلفّني بطواياه، مازال يرثي ضياع العمر.

أنتِ الآن معي، في سوق الطويلة، بين ضجيج بيروت ونداءاتها. فجأة أجد نفسي أمام هذه السيّدة التي تجعّد وجهها، ضربته الأيّام، انحنت القامة الممشوقة، الرشاقة أصبحت جفافاً، لم يعد من أثر في ملابسها لصناعة الأناقة التي كانت ـ ولعلّها مازالت ـ تكسب منها عيشها، حروف كتابةٍ لم تكتمل قطّ، بالإبرة والخيط ومَكنة سنجر التي طالما سمعت وشيشها الرتيب في بيت المنشيّة الصغيرة.

عيناها مسدّدتان إليّ، بلا صوت، بلا كلمة.

أقف، جامداً غير قادر على حركة أو على صوت، في زحمة الناس، صريع نظرة متّهمة خرساء. مطوّحٌ بي في بيداء موحشة، من ألم الخذلان.

مازالت معي، نَفَسها قـويّ على وجهي. حضـورها مـدمِّر، وهي عـلى رأس سريـري، لا تتكلّم، ولا تتصرف. وجههـا شبكـة من الخـطوط الدقيقـة، فمها كـأنّه قـد أغلق إلى الأبد، وسقط. وكـانت الوطاويط ترفّ حواليها، تعلو وتنساب وتنقضّ بسرعة خاطفـة، تهفّ عليّ قريبة أسمع احتكاك جناحيها، وتختفي.

وجدت العرق يتفصّد بارداً، وقلبي ينطبق.

لم أطق الرقاد، نهضت والغثيان يأخذ بخناقي، ويرتفع في حلقي. أحـــت الـدم بطيئـاً في جسمي كلّه، لا يكاد ينبض. أجاهد القيء الذي لا يجيء.

الهواجس القديمة الماثلة أنا فريستها طيِّعةً ومُضحّاة.

صرختي بالليل أسمعها أنا وحدي. أسمعها. مازلت أسمعها تملأ سمائي الليليّة المطبقة.

مركب الفجر مشدود الشراع، واقف على ثبج الموج، ينشد مرساه بلا وصول.

أين نقـطة انبثاق الشمس من حـدّ سكـين الأفق المسنـون، ملبَّـداً بالاحمرار.

أتعـثّر وأقع بـين حجارة مـرميّة حـواليّ عـلى فـراشي الـذي تنـدّى بـأشواقي غـير المرويّـة. أحلام قـديمة مكسّرة، الكتـابات عليهـا قـد امّحت.

أريـد أن أطلقهـا، أن أطلق هـذه الصرخـة في الليـل، الصرخـة

الطويلة الممتدّة حتى الآخر عالية حتّى أطباق السماء العلى، أطلقها بلا حساب ولا تحوُّط، بلا انتهاء، أعلى وأطول ما تكون صرخة بلا قيود، لا تنتهي، ملء الحلق، ملء الصدر، ملء الوجود الساقط تحتها أنقاضاً.

أعرف أنّي لو أطلقتها، لو أنّها دوّت بالفعل في الليل، لو سمحت لأحد - أيّ أحد - غيري أن يسمعها، فلن تتوقّف أبداً، سترتفع كالسيل، صرختي في الليل، وتأخذ معها كلّ الحواجز والضوابط والسدود، سوف أفقد فيها كلّ شيء وسوف أترك عندها كلّ شيء، سوف أضرب بجناحي نسر مكسور في فجر حرّيّة الجنون التي بلا كباح.

احبسْها إذن اكتمْ نارها. سدّ أذنيك عنها.

راقصة مشهورة تملك طائرة خاصّة، اعتادت أن تذهب إلى باريس لليلةٍ واحدة تزور خلالها الكوافير لعمل بديكير، ومانيكير.

عندما وصلت إلى مطار النزهة باسكندرية نصف ساعة قبل الموعد، لم أجد أحداً، لا موظّف من شركة الطيران، لا طائرة، لا أحد. جاء جندي حراسة: «الطيران اتلغى يا بيه!». ثمّ جاء أفندي ينتعل شبشباً زنوبة: «إجراءات أمن لمدّة أسبوع بس!»

وتمّ القبض على محمد المهدي عيسى نصر ٣٨ سنة وهو يعرض ابنه محمود المهدي ٣ سنوات للبيع مقابل ٢٠ ألف جنيه.

وقضت محكمة بولاق الدكرور بحبس سالي طالب الطبّ الذي

تحوَّل إلى فتاة، هي وزوجها، بالحبس شهراً مع الشغل لاعتدائهما على جارهما بالضرب.

رفع عدد من مُودعي شركة والي لتوظيف الأموال دعوى قضائيّة على وزير الداخليّة ومأمور قسم العجوزة بتهمة تسهيل هروب صاحب الشركة اللواء والي، إلى خارج البلاد. كان اللواء قد استولى فقط على ٤ ملايين دولار من ٣٠٠ مُودِع حرَّروا ثلاثمائة محضر شيك بدون رصيد في نيابة العجوزة.

قوّات الأمن بالدقهلية ألقت القبض على ٦٦٠٥ من الهاربين من تنفيذ الأحكام، منهم جنايات ٣٨٢٠، فقط في بحيرة المنزلة.

وتوفي يوم ١٧ أبريل ١٩٩١ في باريس رجل الأعمال عبد اللطيف أبو رجيلة زوج السيِّدة زيليندا اسكولاتشي بإيطاليا وحفيد المرحومَين متولّي أبو رجيلة وحسّان باشا عبد المنعم.

وأمرت نيابة الجماليّة بإحالة أحمد حسن متولّي ٥٢ سنة إلى محكمة الجنايات لأنّه قام بحرق سيِّد متولي ابنه الأكبر، ١٤ سنة، لسرقته ٢٠ جنيهاً لشراء أفيون.

وأحصت منظمات الإغاثة الدوليّة ما بين ثمانية إلى تسعة ملايين سوداني يعانون المجاعة. ولم تُحصِ كم منهم مات جوعاً.

عزيزي أحمد

لم ارسل لك قطّ هذه الرسالة، هل وصلتك؟

ليست هناك أبداً نهايات.

الم نصل بعد إلى هذا اليقين اللّايقين؟ أم أن هناك فينا، دائماً ذلك

النزوع الرومانتيكيّ نحو الفردوس الموعود (أو المفقود) أو حتّى نفحة منه، تردّ الروح الصدِي، يراوغنا دائماً، ونراوغه. وحتّى وهْم الإنجاز على ندرته ومشقّته التي لا تطاق، حتّى هذا ليس فيه إلّا التعرُّض للعراء.

فهل نحن نشيخ؟ أم هي مراهقة لا برء منها - نسمّيها أحياناً براءة وبكارة متّصلة لكي نعطيها نبلاً مزعوماً؟

كلامك عن الغربة التي تحملها معك، لا في حقيبتك بل بين جنبيك، يؤرِّث جرحاً قديماً لا يندمل. هذا يجري مجرى الطبع الآن.

ولكن ماذا بعد؟ هل علينا إلّا أن نأخذ الثور من قرنيه - كما يُقال - حتّى لا تطأنا - نهائيّاً - حوافره؟

قد وطَأنا الميناتور حقّاً، وغَرَزنا، بعمق، غُصنا تحت ثقله في أرض الوطن الوحيد الذي نعرفه، وطن الغربة.

السحب البيضاء الخفيفة، ممزّقة، قطع من الجسد الأنثوي الذي أعرفه، هوائيّة، تدخل من نافذتك لتخرج إلى سماء منمنمة بالشجر والزروع. النافذة مفتوحة، ومعلّقة، ليس لها إلّا إطار خشبي. لا جدار. لا أرض. لا سقف. كأنّها وطنك الوحيد، غربتك النهائيّة.

ومع ذلك فإن هذه الأرض وحدها - أرض كيمى - هي وطنك الباقي.

جاؤوا إليّ من وراء أربعين خمسين سنة، شيوخ؟ لا أعرفهم، اغتصبوا أسماء أصدقاء الصبا والشباب، تلبّسوا جسومهم وملابسهم وانتحلوا تاريخهم القديم؛ مهتزّين، متهدّمين، يتباهون - بشكل مثير للغضب - بإنجازات حياتهم المسكينة. إنّهم تزوّجوا وخلّفوا واشتروا شققاً لبناتهم ورتّبوا وظائف مربحة لأبنائهم، إنّهم وصلوا إلى درجة

مدير عام وأنَّ رصيدهم في البنك لا بأس به وأنَّهم يقرأون «الأهرام». عيونهم صدئة ليست فيها نيران الاستبسال والاستشهاد القديمة. كم منهم ضاع منّي؟ هل إذا لقيت أنطوان في أيِّ شارع من شوارع الحياة المتبقّية، أعرفه؟ إن كان مايزال من أهل هذه الفانية الغرور؟ شوقي إليه - ومازال فتيًّا في ذاكرتي، في الثلاثين من عمره - يعدل أشواقي إلى أولئك الذين اغتصبهم غرباء وضعوا على وجوههم أقنعة محكمة الاتقان درءاً لجريمتهم. لكنّهم لم يخدعوني لحظة واحدة. عرفت على الفور، وأنا آخذهم بين ذراعيّ، أنّهم ليسوا هم، إنَّ هؤلاء الذين جازوا لصوص، هم الذين أطفأوا النيران التي كان من شأنها ألّا تنطفئ قطّ، العنقاء مازالت رماداً لم تفرد جناحيها بوسع السماء، بعد، لم ترفرف بها فتميد الجبال وتتمايل الصروح المشيّدة في المعادي والدقّي وزيزينيا والمعمورة، لم تضرب بأجنحتها فتنقضّ البروج على الخطّافين والنهّابين والغشّاشين، ليس بعد، ليس بعد.

فمتى؟ متى؟

سحابة سوداء تعبر احمرار السماء الممزّقة وعناقيد الثمار الحيوانيّة العطشى للدماء معلّقة مقلوبة بمخالبها الحادّة، أغشية الأجنحة المعقوفة سوداء مشدودة مرهفة تتذبذب مع أهوائي وشطحات روحي، رابضة على حواشيها الذهبيّة الداكنة.

أمّا أخته، جورج، فقد أنسيت اسمها تماماً. أذكر فقط المشية المتقصّعة والكعب العالي جدّاً دائماً والحواجب المحرقصة دائماً والعينين اللّتين تندبّ فيهما رصاصة. وجهها نبيذيّ النكهة وشديد النعومة معنياً به عناية كاملة، هي أيضاً كأنّما تسألني، دون كلمة، ماذا تنوي

أن تفعل، يعني؟ إلحاحها في السؤال، دون كلمة، بعينيها فقط، اقتحام حقيقيّ.

كأنّ كلّ شعرة في جسمها محفوفة، بالحلاوة.

نعومتها لا تحتمل.

هل دهن جسمها، كلّه، وهي نازلة من بطن أمّها، بدم وطواط صغير منتزع من بين جناحي أمّه، جلده مصقول ولزج وأملط تماماً، يصأى بوصوصة واهنة، مذبوح بسكّين حادّة على نور شمعة واحدة وبخور الجاوي والدارصيني والصندل. فلن ينبت لها الشعر أبداً. تظلّ ملساء كالرخام الحارّ اللّدن.

حجارة أحلامي إذن مازالت مرميّة على سريري، أنقاض العمر، وعلى أرضيّة غرفة نومي، أتعثّر فيها، وتجرح أصابع قدميّ الحافيتين، وأنا أعود، بعد أن تقيّأت، أخيراً، في الحمّام.

أحسّ نفسي مستنفداً، هالكاً.

ألتقط أنفاسي بمشقّة.

حجارة من معابد كوم امبو وأبيدوس ودندرة، منقوشة منحوتة بالقلم العتيق. حيّات وأمواج ونسور وحدأ تثب خارجة من الحجارة تدور حولي وتملأ عليّ الغرفة، أضرب الهواء بذراعيّ، أطردها، أصرخ بلا صوت ولا تنزاح بل تتجمّع في سحب كثيفة تلفّني وترتفع، سوداء تئزّ وتطنّ وتتموّج بثقل تخترق سقف غرفة نومي فجأة ثمّ تعود تهبط تنقضّ عليّ.

أوقدتُ النار في حفرة في أرضيّة الغرفة وصعد الدخان إلى السقف

وترك غيبيات جـافّة من الهبـاب الأسود المتفتّت ولكن السحـابة الحيّـة المرفرفة لم تنقشع لبدت فقط فوق رأسي لا تنجاب.

هل نجاتي وملاذي فقط هناك عـلى شطّ البحر الكبـير تحت هفهفة أشجار الدوم الـرشيقة عـريقة القـوام تحت عيني أوزير الحـانيتينْ، أو أنّني لا أعرف أن أقرأ رسالتها؟

استيقظنا من نومة الفجر على طقطقة الرصاص وهبدات المدافع في السماء يتردَّد صداها العميق بين الجبل القريب وأنفاس البحر البليلة.

كانت الستـارة بيضاء، نصف شفّافة، على نافذة غرفتنا المحجوزة ليلة واحـدة في «أطلس»، ملفوفـة بدبـابيس إبرة لا تـترك فجـوة بـين فلقتيها يمكن أن يجرحنا منها أحد.

وكـان جسمها الـبرونزيّ الحـارّ، عاريـاً، لامعاً من نـدى الشهـوة والغيبة، بين ذراعيّ، وتحت ساقيّ.

وكـانت فوضى الأخبـار في صحف شـارع الحمـرا فـاغـرة الأفـواه صارخة بصمت مثـل جياد الجـيرنيكا ضرب الجنـون وشطح الحب في شـوارع العـالم عـربـدة العشق العقيم في سرائـر غـريبـة وعـلى سرر مصنوعة ومهوشة وأجنبيّة وحميمة.

وعشق النعمة الخصيب؟ هل راعيت عَهْدَه وعملت بوعده؟

كلّ عشق غير كامل، مهما اكتمل، ومهـما كانت لحـظته هي الأبـد فهو غير قائم في الأبد. كلّ عشق خيانة محتومـة. ذلك لا يعـزّيني ولا يريحني ولا شيء.

أمّا التمساح فقـد كان مـرمياً عـلى جدار شرفـة بيتنا في كليـوباتـرا

الحمّامات. هائل الأنحاء وحراشيفه جارحة وصلبة، لا يتحـرّك. ذيله الضخم، مشحوناً بقوّة منذرة، ملقى به، تحت، على بـلاط الشرفة، مهدَّداً في جموده، وإن كانت عيناه الضيّقتـان ليستا عـليَّ مباشرة، بـل على النخلة الطويلة الوحيدة في الحديقة الدقيقة التي لا تتجـاوز أمتاراً قليلة بين سور حديديّ عال مشغول وباب البيت الذي أمامنا، عتيقـاً ثقيل الشكل.

أين أنت الآن. أم أين أنا؟ هل ضربت أيدي الليالي بيننـا؟ حقّاً؟ هو الحلم يبدو كطفل غفـا، على لجّـة البحر عنـد الشفق. ضحكت، وسـألت نفسي: هـل هــو ضحـك كـالبكـا؟ أضحــك، أو أبكي، كالأوتومات، مبرمَجاً، متوقّعاً، أكاد أسمع تكّة التروس الداخليّة. على مضجع النور بين الورود، ويبدو كطير لاح ثمّ اختفى، ويبـدو شراعاً أبيضَ، قد هفا، كأنغام ناي بأفق بعيد. ها ها! هو الحلم هـو العمر هو الحبّ هو الشـوق هو الألم أليسـت يـداي صفراً، خـاويتين؟ فـماذا كنت تريد وبِمَ كنت تريد أن تملأ اليدين؟

رمينـا معاً قـروش الأماني ـ لـيرات معدنيّـة على الحقيقـة ـ في مـاء النافورة. كنّا بعد منتصف الليـل وكانت الأضـواء لنا وحـدنا، أحيط خصرها القويّ بساعدي ومن النـاحية البعيـدة أمسك بيـدها، يـدها الرخصة المليئة. لم نكن نعرف بعـد أنّ الحبّ قد قـام. كنّا ضربنـا في شوارع المدينـة النائمـة التي تيقّظت لنـا وحدنـا. على غـير وجهة. لا تقودنا إلاّ خطى حبّ لم يعرف بعـد أنّه هنـاك، وأنّه سـوف يُنتزع من بين أجنحة سوداء. صعدنا ربوات أسفلت نديّة خـاوية وجـرينا أمـام سفعات ريح باردة قليلاً منعشة ومُحْيِية وعبرنا ساحات شـاسعة ونفـذنا

من تحت بوّابات رومانيّة عريقة وحدّقت إلينا تماثيلهم فاغـرة العينين. مضينـا، ولم نرجـع قطّ، حتّى الآن. مـا من شيء يـرجـع قطّ، أليس كـذلك ؟ أليسـت هذه حكمة القدماء، دائمة الجـدّة. فهل انقضى شيء؟ التماثيل غسلت بماء النيل في غرفة نومي، لكنّها لم تعد كما كانت، عند ساعة تخلقها، أو لم تتغيّر قطّ، صانتها من الزمن يداي.

«بحر العشق ليس له شطآن»

صدقت يا سيدي الفردوسيّ.

وحتّى إذا لم تكن قد صدقت. . .

ماريتي رامتي نعمتي التي لم تكن لي قطّ وما كان لي قطّ امرأة أقرب منها وألصق وأعمق عضوية إليّ.

جيبتها كانت تهبّ بها أنفاس الريح الليليّة وحذاؤها يبدو، في نـور المصابيح القـويّة العـالية، مـتربأ من غـير تراب، جلده غـالي الشكل ومـرناً، قـد التصق بجلد قدميهـا الغضّ كأنّـه ينمـو منهـا أو جـزء لا ينفصل عنها.

كانت النافورة مفاجئة، وكان عشقنا مفاجئاً.

كلاهما انطلق ـ كأنّما بالصدفة؟ أم بحكم قدر لا يردّ؟ ـ من قمقمٍ ألْفيٍّ، ليبسط جناحيه على الروح، ويستولي عليها.

الحجارة مازالت تسقط من سحاب متلبّد.

النزوة الثانية

الأشجار السوداء

سألت نفسي: هل ستأتي فعلاً في الميعاد؟

بشيء من اللهفة ولكن من غير مبالاة في الحقيقة، قلت لنفسي.

كان المطر يسقط رذاذاً حارّاً، كأنّه غشاء مخرّم شفّاف، يلفّ كلّ شيء: الأشجار السوداء والبيوت الخشبيّة التي تتصاعد عليها دغلات نباتيّة داكنة الخضرة، غضرة وقويّة العضلات، تحتضنها بعنف، وأعمدة النور الكهربيّة، والسيّارات التي عجلاتها تطسّ رشاش الماء الخفيف من على الأسفلت.

شجرة نخل سلطاني، وحيدة، سامقة، مدوّرة السعف. تحت النور المشعّ من الكرة البيضاء التي تحوّم حولها غييمات من الهاموش الدقيق المتموّج، محتمياً من قطرات المطر الدقيقة المنسدلة برقّة.

ساق النخلة المشوقة ترتسم قاطعة بإزاء حائط رخاميّ أشهب منقوش منحوت برسومات غائرة في جسد المرمر، وناتئة منه.

بيضاء مدملجة ملساء ممتدّة إلى أعلى، وحدها، برشاقة لا تصدّق.

عندما دخلت، وجدت بار «سفنكس» ضيّقاً وشديد الدفء،

ومعتماً، الأضواء المحمرّة الملبّدة تسقط من عيون صغيرة مصقولة جدّاً.

وكان البحّارة صاخبين أمام أقداح البيرة العالية التي تفيض برغوتها البيضاء على جدران زجاجها الرطب، والنساء معهم، فساتينهنّ المشقوقة حتّى منتصف الفخذ لامعة النسيج.

أمّا نسيج السيقان الأنثويّة فكان يبدو خمريّاً شديد النعومة وكأنّه زيتيّ. والرشاقة الجسديّة كاملة.

كان المطر يدقّ بوشيش متصل ومنتظم الطَرْقات على حصير منسدل يحجب الشرفات الحجريّة العالية، على أسفلت الشارع، على أسقف السيّارات المارقة بسرعة.

ومن صدمة سقوط ستار المطر الشفيف تصعد من سطح الحصير والأسفلت والسيّارات سحابة من البخار الخفيف لا تكاد ترى، تتطاير شرائح هفهافة من البلل والحرّ.

للمياه خرير مغرّد في الشقوق المفتوحة، المحفورة لتصريف المجاري، تحت الأرصفة مباشرة، لا أكاد أشمّ منها رائحة العطن.

انتظرت طويلاً، للأبد، في البار، في زحمة التعلّل واليأس، تحيط بي جماعات الباحثين عن السُكْر، في عطش الشهوة، في الضجّة المكتومة المصمّمة تحيق بها حرارة المطر في الخارج، لا يهن، قاسياً في استمراره. عربدة الحواس تسخّنها أبخرة البوربون والبيرة والجن.

لم تأتِ.

هل أتيتِ؟

خرجت من خنقة البار، وكان يرفرف في سماء الليل رخّ الجارودا بجسمه البشريّ الجسيم العاري وجناحيه الهائلين المحمرّين يهتزّان من أقصى الأفق إلى أقصاه فوق المدينة التي تومض مصابيحها الكهربيّة وتغمض مرّة بعد مرّة بين الأشجار الكثيفة، رأسه المخروطيّ ممدود المنقار ينقضّ عليّ، مرّة بعد مرّة، لا يصل أبداً، ولا يتوقّف.

جارودا ـ نخبت، الذكر المنتصب أنثى العُقاب معاً، رئيس الطيور نسر البشر سارق جوهرة المحاياة ابن النجوم البرونزيّ الجلد مطيّة ڤيشنا كأن جسمه الحجري المحروق اللون حيّ باللذّة، هازم الصواعق، وجهه وجناحاه وساقاه تلمع كلّها ذهبيّة في السحاب المنير الليلي، وهو يخطف في انسياب الزئبق.

يأوي إلى شجرة الكافور الكبيرة الوارفة لا تنبثق عن الأرض منها إلّا اثنتان واحدة في طرف شبه جزيرة صندابوره التي أطرق الآن طرقاتها والثانية في قلب مدينة نخنت التي اسمها الكاب في طمي بلادي السخن: أمّ رع عين الشمس اليمنى ربّة الصعيد صاحبة القوس والسهام صحراويّة اللون تضرب إلى البياض أنتِ التي تراعين الموتى وتجعلين منهم أشياءَ من الحُسْن والجمال عيونهم كرات من النور.

ظلال الباجودات في عتمة أوّل الليل تتخايل لي، من غير دعوة، بغرابة كاملة.

أصادف بعض المارّة، صغار الجسوم، كلّهم أسرار، متألّقي

العيون في العتمة في بيجاماتهم المميَّزة، كانوا - على قلّة قدّهم - مهذّدين بشكل ما.

ولم تكن دقّات المطر الهيّن تضايقني، بل أرحّب بوقعها على رأسي، على قماش البدلة الصيفيّة بنصف الكم، وعلى ذراعيّ المبتلّتين قليلاً.

كان الشارع الخاوي العريض يدسّ في نفسي شيئاً من توجُّس، بأشجار الصندل والأبنوس والفلفل والرمّان، ضخمة ثقيلة الأغصان، تنزل منها قطرات مدوّرة من الماء تطسّ الرصيف بصوت سْبَلاشْ واضح الانفجار.

كأنّما أحسّ أنّ هناك من تمشي معي، في وحشة الشارع المقفر، حضور أنثوي يحوطني ويحرسني ويتربّص بي ويثير كوامن شهوتي. لا أكاد أجرؤ أن أتلفّت ورائي، ولا أريد أن أسارع من خطوي، كأنّني أتّقي محظوراً أهفو إليه أو أطايب أحداً، لا أستنفر شيئاً.

حتّى أراحني حسّ الجفاف والنور الهادئ في مدخل المبنى، نصفه بالحجر الأبيض الضخم ونصفه بالخشب العتيق المدهون بالأخضر، قديم ومشقّق، صوت أزيز درجات السلّم الخشبي مُطَمْئِن، بيتيّ، مأنوس.

سارعت إلى الغرفة رقم ٥ التي كان يشاركني فيها شنودة وابراهيم. الواحد منّا يدفع ١٥ دولاراً في الليلة. كنّا راجعين من باندونج، وكانت طلقات النار ودقّات المدافع تدوي بالليل الحارّ الثقيل، عبر الجبال الصامتة، بعد ميعاد حظر التجولّ.

غيّرت، ودخلت الحمّام، وفتحت الدوش وأنا أقف في داخل حائط

دائر مبنيّ بالأسمنت حتّى ارتفـاع منتصف الجسم، الأرض زلقة تحت قـدميّ فأمسـك بالحـائط النصفي المدوّر طـول الوقت، المـاء ينزل في دفقات متناوبة متلاحقة، سخناً لاسعـاً كثيفاً ثمّ رشّـات من رذاذ بارد خفيف لا أستطيع أن أتحكّم في اندفاعه وتراخيه.

نشّفت جسمي بفوطة غير أورثوذكسيّة النظافة ناصلة الوبرة قليلاً.

وجدتهم في الشرفة الخشبيّة العريضة القائمـة على أعمـدة حجريّـة مربّعة تلتفّ عليها أغصان نباتات متسلّقة متورّمـة بالخضرة والغضـارة الليليّة الداكنة: شنوده وابراهيم ورؤوف ونبيل، حول المائـدة الخشبيّة الواسعة المستديرة، يستعدّون لجلسة تحضير الأرواح.

كان ابراهيم يـريد أن يتحـدّث إلى روح أبيه الصرّاف الصعيـدي الذي مات من سنين، قال لي إنّه كان يجوب القرى والنجوع المتاخمـة لمنفلوط، حتّى ممـاته، يلمّ ضريبـة الحكومـة عـلى الأرض، بـالعبـايـة والجلباب الصعيدي ذي الحزام الحريري العريض على بطنه وقد دسّ فيـه دواية الحـبر وأقلام البسط، وفي عبّـه الكيس الميري الـذي يلفّـه بمنديل كبـير حتى لا تخشخش الجنيهات الـذهـب، والريـالات الفضّة الكبيرة. قلت له: أبي، تمام، في عزّ شبابه، لمّا كان في أخميم.

طلبوا منّي أن أنضمّ إليهم.

كان بنسيون «لـويد سيتي» قـريباً من مبنى رافلز، وحيّ السينـمات والبارات، ومعبد شيتيار الهندوكي، والبُدّ البوذي الكبير. ولكن ما إن أدخل طريق ستيفنسون حتّى يحلّ سكـون بريّ مـوحش، كأنّني أمسّ مشارف الغيب، أمسّ حافّة جسم ما هو وراء الكون نفسه.

جارودا نِخْبت الذكر الأنثى، أقنومان في جوهر واحد، في المخلب الأوّل المحجون ثعابين طويلة مصقولة الجلد تتلوّى وفي المخلب الآخر المحجون عنخ الأبد ومعت العدالة وماسات النجوم الزاهرة حول عمود اللوتس المنصوب.

رُخّ جارودا نِخْبت يرقبني بعينيه الجاحظتين يضربني، مرّة بعد مرّة، دون هوادة، لا أسقط ولا أفيق.

لم أمانع أن أجلس معهم، من باب الفضول والتطلّع. قالوا نمسك بأيدي أحدنا الآخر، فلم أمانع، وإن كنت لا أصدّق الحكاية كلّها. وعندما طلبوا مني أن أصلّي معهم «أبانا الذي في السماوات..» رفضت، على سبيل المبدأ، أيّامها كنت طهرانيّ اللاّعقيدة، لا أقبل أن أجامل.

كان شنودة هو الوسيط، وبعد فترة أغمض عينيه، وقال إنّ الروح جاءت لكنّها ترفض الكلام معنا، لأنّ معنا من هو غير مؤمن.

قلت في نفسي الإيمان لا علاقة له. لي إيمان في قلب اليأس والنكران. لي إيمان.

تفصّد العرق البارد على وجه شنودة الطفليّ الأسمر، المتهدّل الوجنتين من سمنته وتدويره، كانت أنفاسه الآن متلاحقة، قصيرة، وفيها زفير خشن، وكأنّه يجاهد أن يقول شيئاً. تغيّر صوته، وندّت عنه غمغمة ووحوحة وأنين مكتوم يتناوب مع أنصاف كلمات مدغومة مطموسة المعالم.

ثمّ أفاق.

فشلت الجلسة.

ورأيت الأغصان المثقلة تسقط على الشرفة الخشبيّة العتيقة، وتحيط بها ألف ذراع سوداء شائهة الشكل، متهدِّلة باللحم الأخضر وفتولة العضل والورق العريض، ساكناً بلا حراك، مبلولاً، ليس إلّا حسّ وشيش المطر الذي لا يُرى ولا ينقطع.

قال لي شنودة إنَّ أمَّه، في الاسماعيليّة، بعد العدوان، اشترت ثعبان سمك لتعمل له الطاجن اللذيذ المحوّج بالزعتر والريحان والفلفل الأخضر والجزر والبصل. عادة، قال، تاكل صوابعك وراه.

قال وضعت الثعبان السمك على بلاطة الحوض، كان حيّاً، مازال، يرتعد. جسمه المدوّر الأملس يرتجف في ذبذبات صغيرة مثل رقرقة الموج المتلاحقة تعبر تحت جلده المرقّط الغضّ، لامعاً. وشكله فتيّ عَضِل.

قال وسمّت أمّي باسم الصليب وجاءت بالسكّين الكبيرة، وهمّت بأن تمسكه من رأسه، فإذا هو ينتفض بين يديها ويفتح فمه الدقيق، ويصدر عنه صوت أخنّ، مبحوح قليلاً، ولكنّه واضح تماماً، بالعربي: اعملي معروف يا ست. اعملي معروف، سيبيني عشان خاطر ربّنا، سيبيني أرجع لأولادي عشان خاطر مجد يسوع دانا عندي ولاد عايز أربّيهم. ثمّ سكت. أطبق فمه تماماً.

قال إنّها نفضت يدها منه أوّلاً وهي تصرخ: يا يسوع!، ثمّ عقدت عزمها، وملأت سطلاً صغيراً بالماء، ووضعته فيه، فلبد فيه ساكناً لا يتحرَّك، ملفوفاً على نفسه بهدوء، حتّى جاءت به للترعة

الحلوة. فلمّا اقتربت من الترعة، وشمّ رائحة الماء، قفز بوثبة هائلة واحدة واسعة المدى، حطّت به في الماء، وغاص.

في ظهر ذلك اليوم، وبعد أن زرت البدّ الكبير وأخذت صورة مع بوذا الذهبيّ، وحودت على حفرة الثعابين العميقة ورأيتها تتلوّى بوداعة حول الرجل النحيل الجاف كأنّها تمصّ منه عصير الحياة، أو تمدّه به، واشتريت حقيبة جلد تمساح من محلّ «سان كونج» في شارع الجسر الجنوبي، وأخذت بيجاما صينيّة ساتان مطرّزة برسوم تنانين ذهبيّة من محل «أورورا» على طريق الجسر الشمالي، كنت قد عبرت الكوبري، ودعاني سكّان المراكب من وسط زحمة عائلاتهم ونومهم وطبيخهم وبضائعهم من كلّ صنف ونوع، بانجليزيّة حادّة مشروخة، أن أشتري منهم شروة سمك «برخص التراب»، أن أشتري أناناس طازة، أو مانجة، أو باباي شقّ لي أحدهم فاكهة منها مدوّرة حمراء شكلها مغري الطعم. طماطم وفلفل أخضر وجزر وبصل وصنوف من الخضر مثل الشبت أو البقدونس يانعة وشرسة: تعبت، فجلست على المعقد الرخاميّ، أحسسته بارداً منعشاً تحتي، في ظلّ النخلة السلطاني الوحيدة.

كان الجوّ حارّاً وكهربيّ الجفاف. لم يكن المطر قد جاء.

النخلة الوحيدة دعتني، بلا إمكانيّة للمقاومة، بساقها الطويلة البيضاء الناعمة، وهي بإزاء الجدار المرمري المنحوت، رخامه الأشهب ساطع في نور الظهر.

ظلال سعف النخلة مازالت تهفهف عليّ. ولكنّني فجأة عرفت بيقين كامل أنّ النخلة ليست في موقعها، إنّها اختفت.

قالت لي المرأة التي وجدتها فجأة، بجانبي، على الرخام المنعش المظلّل، بانجليزيّة لها حفيف خافت:

- نهارك سعيد.

وتحدّثنا.

قالت إنّ اسمها «ليا هي»، إنّها من هنا، ليست غريبة. ومن أين أتيت؟ فلّما قلت لها: من مصر، قالت لي إنّ أقاربها كثيرون في مصر. وقالت:

- لا تندهش، هناك أشياء لا تخطر لك على بال.

كان فستانها الأصفر باهت الذهب ينشقّ - كعادتهنّ - عن ساق عاجيّة عارية حتّى منتصف الفخذ، بدت لي حريريّة الملمس. وبطنها مدوّر صغير، محبوك في الفستان، سلسال ليست فيه طيّة واحدة. راقني أنّ ثدييها ممتلئان، كاملان في تدويرهما، كرتين عظيمتين منحوتتين تنهضان بنسيج الفستان الساتان، ياقته صلبة ترتفع بإحكام حتّى تدور بالعنق.

وكأنّني لم أستطع، مهما حاولت، أن أتبينّ قسمات وجهها في عكس نور الظهر الباهر، لكن شعرها كان مستديراً على الرأس، خصله مفروشة، ترمي بظلال هفهافة على وجهها، وعليّ - كلّي - في جلستي قريباً منها أكاد أمسّها وأُحسّ: ما أبعدها!

أجد نفسي دائماً على باب السرّ.

لا اقدر أن أنفذ منه

لا أني أطرقه، لا أني.

لا أعرف كيف أدخل

لكي أفنى
سورة غوائل الشهوة مازالت مكتسحة.
ليست شهوة الجسد فقط، بل هي، وما وراءها.

لماذا ذكرت فجأة عناقيد خمائل النخل المتكاثفة على الليل، دغلاتها ملتفّة بعضها على بعض، على طول الصعيد؟ غمامات سعفها السوداء متقاربة الوشي تلفّ عُرْي السماء الصافية، سيقانها متراكبة على بعضها بعضاً في أنواع من العناق الوشيج الذي يوشك أن يكون شبقيّاً.

غابات الرؤى مسدودة المسالك
تحاصرني.
بلا رحمة.
بلا هوادة.

لكنّها لم تأت إلى ميعادنا في بار «سفنكس» أم هل كان اسمه ـ هذا البار ـ «سان فرانسيسكو»؟ في الشارع الكبير على مقربة من شارع ستيڤنسون. أم هل أتت؟

طوال الساعتين الأبديّتين اللّتين قضيتهما في انتظارها كنت أعرف، على نحو ما، أنّها هناك. معي. أعرف، على نحو ما، أنّ النخلة السلطاني الأملود ليست في موقعها.
لكنّها لم تتجسّد لي.

بعد ثمانية وعشرين عاماً، في ١٥ نوفمبر ١٩٨٩ بالضبط، قالت أمّ عمرو، وهي سيّدة بورسعيديّة، لمصطفى السعيد من جريدة «الأهالي»:

«بينما كنت أنشر الغسيل في البلكونة فوجئت بسقوط فانلّة طفل، قذرة جدّاً، على رأسي. فألقيتها في الشارع. وإذا بها تختفي قبل أن تصل إلى الأرض. وإذا بجاكتّة طفل قذرة تسقط على رأسي. فشعرت بالخوف وأغلقت البلكونة، فسمعت صوتاً على الأرض. ووجدت ثلاث قطع بنبوني ليس لها مثيل».

لم أصدِّق، بالطبع، شيئاً من ذلك.

قال لي صوتها الخافت، خشن الوشيش:

- يا قليل الإيمان، لماذا لا تصدّق؟

فلم أقل إنَّ إيماني راسخ وعميق، لأنَّه نكران.

«في الصباح، ثاني يوم، ذهبت إلى الشيخ صلاح - وهو إمام أحد المساجد - فأمرني بأن أوقد ثلاث شمعات، وأحرق البخُور، وأضع طبقاً من الحلوى للعفاريت. بعد فترَة، اختفى الشمع، والبخُور، والحلوى، ووجدت بدلاً منها ثلاث قطع بنبوني».

المرأة المُخصِبة، ثدياها عوسجان مثقلان بثمار الرُّطَب، أحسّ أنفاسها عليّ، حانية ومعزّية في حَرّ بار «سان فرانسيسكو» المدخّن المزدحم بلغط البحّارة الأمريكان.

جدائل سَعَفِها غير المرئيّة تلغي سقف البار وتندسّ من بين مصابيحه المكوَّرة الملوَّنة بالأحمر العجيني والأزرق الملبّد، ترتفع في السماء الليليّة، تؤنسني.

ومع ذلك فلم أفلت من التفاف حيّات الجسد حولي في داخل زروعه الحوشيّة وهيشه الخشن وحلفائه الشائكة وبوصه الأخضر الجارح.

قالت أمّ عمرو:

«في نفس الليلة سمعت أصواتاً في الصالة. وخرجت لأجد لعبة عمرو، دبّابة بالبطاريّة، تتحرّك وحدها، كلّ لعبه الأخرى متناثرة في الصالة.

«وعندما حضر الشيخ صلاح وفتح المندل قال إنّهم أطفال من الجنّ يريدون اللعب مع عمرو، وطلبوا المزيد من الحلوى والشمع والبخور وأرزاً باللبن أيضاً».

كانت العناكب قد نسجت شباكها التي تبدو لي بالليل بيضاء كثيفة الخيوط، في أركان الشرفة الخشبيّة، بين الحجر وألواح الخشب المشقوقة، من الداخل، وبين الحجر وطوايا الشجر الغامضة، من الخارج.

«في اليوم التالي اختفى عمرو من على السرير، فتملّكني الرعب، وإذا بي أجده في بانيو الحمّام، وحبّات الماء تتساقط عليه. فوضعته على السرير وفتحت المصحف على سورة يس ووضعته فوق رأسه. تركته في حراسة المصحف واستيقظنا على بكائه في غرفة أخرى».

«هرعنا مرّة أخرى إلى الشيخ صلاح فأعطانا حجاباً وعزيمة لقراءتها ونحرق البخور ونطلب من خدّام العزيمة عدم تعرّض العفاريت لنا بالشرّ. قال إنّهم قوم منهم مؤمنون ولكنّهم عصاة».

«بعدها لم تعد العفاريت تمسّ ابني عمرو، لكن ملابسي بدأت تختفي كلّها. ولم يتبقّ غير قميص نوم واحد. وسرقوا الكمثرى

والمانجو والخوخ من الثلاّجة، وأخذوا ٨ خواتم و٤ غوايش وسلسلتين و٨ حلقان ذهبيّة، وفتحوا حصالـة عمرو وأخـذوا منها ١٢٠ جنيهـاً، واختفى طقم السرفيس الصيني قـطعة وراء أخـرى. وبعدهـا ملابس عمرو وأحذيته ثمّ ملابس زوجي . . !»

أمّا أنا فقد حججت إلى أجمة شجر السسبان المُلْتمّ حـول البئر التي اغتسل فيها المسيح.

قالت إنّ السسبان يحميها، ويظلّلها من نكاية عين الشمس.

قالت إنّ عودهـا يطحن ويجفّف ويجعـل منه بخُـور ينشّف رطوبـة الأرحام ويقاوم نهش العقارب والأفاعي.

قـالت إنّ حَبّها إذا تـرك في نـور البـدر ليلة ١٤ نبتت لـه أجنحـة وتخلّقت منه طيور زرقاء ليس هناك أجمل من تغريدها وتـرجيعها وهي تسبّح وتحلّق بين النجوم.

وإن دهنهـا ـ وهو أعـزّ دهن الدنيـا ـ يؤخـذ عنـد طلوع الشعـرى اليمانيّة ـ وآه من الشعرى اليمانيّة ـ بأن يشرط ساقه بالحديدة ويجمع ما يتبدّى بقطنة.

قالت إنّه لا يجاوز الست أوقيّات، بحال.

ثمّ يدفع به إلى عمّ بشاي ابيسخيرون، هو وحـده في العالم الـذي يعرف سرّ طبخ الدهن، ولا يعلّم أحداً إلاّ ولده الوحيد.

وكانت قد غَنّت لي، من زمان، بصوت خافت، وكلّه جنس:

طلعت فوق الجبل أشكي الهوى لله آه يالا للّي

لقيت تلاتة بيقروا آه يالا للّي

الأوّله.. الثانِية.. آه يالا للّي
التالِتة للغريب حفّضته باسم الله.. آه يا روحي.. يالا للّي
آه يا سِيدي يالا للّي.
دخلت جوّه الجنينه عيّط الياسمين يالا للّي..
والسَسَبان اشتكى والورد قال دا مين
ردّ العنب قال افتحي دا العاشق المسكين
دا الغريب اللِّي حفّضته باسم الله..

قلت لها، وكنّا عاريين، أمام كأس من الويسكي، وموسيقى سيبيلبوس تصدح بعنف، وقد شبعنا ـ مؤقّتاً ـ من صنع الحبّ، سرعان ما سوف ينجاب الشبع:

ـ أتذكرين الغنوة التي فيها السَسَبان اشتكى..؟ عرفت وأنت تغنّين، أنّي الغريب، في جنّة انفتحت لي لأوّل مرّة، أكلت فيها من شجرة المعرفة، ومن شجرة الحياة معاً. وأصبحت نصف إله.

ضحكتْ بخفوت، وعيناها تلمعان بما تجيده، هي وحدها، من سخرية خفيفة مُحبّة ـ وحنون؟ ـ وقالت:

ـ هو أنت افتكرت أنّك أنت الغريب؟

ولم تزد.

أفقت فجأة على أنّي غريب حقّاً حتّى في غربتي.

فهل كانت تلك الضحكة هي التي أخرجتني من جنّة موهومة؟ أم هي التي أبقت هذه الجنّة، وليس فقط في وهمي؟

أمّا ثمرة السسبان، وفاكهة المعرفة المرّة، وبذرة حياة الأبد، فقد كانت قد امتزجت بلحمي ودمي.

وشجرة الصبّار النازعة إلى أعلى مليئة بالمرّ، وشجـرة دم الأخوين، والأبــوكـاليبتس والجمّيــز والنبق العجـوز. أجمــات الــرؤى، رؤى الأدغال.

جنّتي المفقودة، الباقية أبداً.
لم أصدّق لحظة واحدة أنّها لي.
أعرف أنّه ليس لي غيرها.
«يا طُلولاً برامةٍ دارسات».
لم يبقَ منك إلّا الخطّ، والألم.

ثعبان في الأعشاب

كانت الشبابيك تفتح على البحر مباشرة.

ماء الموج الرفيق يأتي من عرض الأفق ليخبط الحيطان. صوت ارتطام البحر بالحيطان هينٌ وموسيقيٌّ.

كنت أطلُّ من الشبّاك، وقد سحرتني إيقاعات الموج الرتيب.

تنبّهت فجأة فإذا بي أرى أنَّ السماء قد ادلهمّت بغيوم قاتمة تأتي بسرعة من الشمال، محمّلة بالنذُر، والهواء قد برد فجأة، بشكل محسوس.

ارتفع ثَبَج الأمواج، في صوتها الآن غضب. واشتدَّت لطماتها لحيطان بيتي. وكان الزبد الأبيض يرغي على أفواه فرسان اليمّ المهاجِمة.

الصيّادون بمعاطفهم وشباكهم، وصديرياتهم ذات الأزرار المتعدِّدة اللامعة تحت جاكتّات مبلولة وخلقة، كثيرين، سمراً، منحوتي الوجوه، يدخلون عليّ من الباب المفتوح، وقد ارتفعت المياه على بلاط الأرضيّة، في دوّامات مسطّحة يطفو عليها الزبد سحابات رمداء ممزّقة.

شمَّرت البنطلون ورفعته إلى ما فوق ركبتيّ، ونزلت إلى فَسَحة البيت وقد غمرتها المياه التي تزداد هجوماً وارتفاعاً، لحظة بعد لحظة.

رأيت أنَّ الصيَّادين يخرجون ثانية، جرياً، يطسُّون الماء بسيقانهم السوداء القضيفة، وقد لمّوا شباكهم الضخمة الثقيلة على أكتافهم، أسمع صوت اصطدام أقدامهم بالبلاط المبلول، تحت الماء، ورشاش الموج المضطرب.

وجدت نفسي وحدي، والماء يرتفع، ويُحْدِق بي.
ولا طريق للنجاة.
صرخة الليل المختنقة، المعتادة.

ريح البحر تحملني إلى حضن الملائكة الحجريّة، بيضاوات، صغيرات جدّاً، أجنحتهنّ هشّة مرنة تنبسط تحتي فأسقط منها إلى لَبَن البحر المزبد وفجوات المقابر المفتوحة. الهياكل العظميّة الجافّة - هل هي عظام أبي وأمّي وأخواتي؟ - تمدّ أذرعتها إليّ كأنّما تناديني، لا أسمع صوتاً تحت ثقل سقطتي، بينما يصدر عن الملائكة ما يشبه طنين هيليوكوبتر، أزيزٌ متّصل لا أسمع معه موسيقى السماء التي أتوقّعها، وتمتلئ عيناي بالدموع لأنني تذكّرت صوت الترام الذي يصطك بقضبانه في شارع راغب باشا.
كلّها اندثرت.

أشهق، كلاب المقابر كثيرة متزاحمة عليّ تنبحني بعنف، أنيابها عارية حادّة وهي فاغرة أفواهها. هل ترفضني أم ترحِّب بي؟

أمّا فتحيّة ابراهيم عرفات، وسكنها ٣٥ ش القمر، اسكندرية،

فقد قالت للأهرام في ١٩٨٦/٨/٥ إنّها زارت مقابر الشهداء بمحطّة السويس العسكريّة وحزنت لما آلت إليه فالجدران مهدّمة والطريق إليها غير ممهّد ووصل الأمر إلى أنّ الداخل إلى المقابر قد يصطدم أحياناً ببعض العظام البشريّة فهل هكذا نرعى حرمة الأموات والشهداء، قالت.

مصابيح الشارع المتّقدة بالغاز الذي يفحّ، تفكّ الرصد وتكسر العزيمة وترجع إلى هيئتها الأولى تعود لها أجنحتها المرفرفة وتطير، وهي مشتعلة الجسوم، في سماء غيط العنب، تضيء لنا ليلنا، وتتجاوب مع شموع فوانيسنا: وحوي وحوي ايوحه بنت السلطان ايوحه جابت فسطان ايوحه، وترانيم الذكر تأتينا من وراء جامع سيدي كريّم، نفحات هبّات الهواء لها طعم مبلول في الحرّ الليليّ. وكأنّني الآن ـ بحنوّ يمزّق قلبي ـ أذوق طعم ملح دموعها القليلة المنسابة على خدّها الخمريّ، المدوّر، الأسيل، الذي أموت ـ الآن ـ شوقاً إليه، خمر بشرتها الناعمة.

خمر العشق قد تجمّد حجراً في فمي.

نجيب تقاوي، أرسل للأهرام كذلك، برقيّة في ٢٧ يونيو ١٩٨١ يسأل ـ «كيف الوصول من ميدان العباسيّة إلى مستشفيات الصدر والحميات والبيطري بينما الشارع كلّه مطبّات والبرك والمستنقعات وهيئة النقل رفضت أن يمرّ الأوتوبيس رقم ٦١ خوفاً على عرباتها وكذلك التاكسيات أهالي المرضى ينقلون مرضاهم على أكتافهم.»

فهل يحمل العربجيّة أيضاً بغالهم الجريحة وحميرهم المكسورة؟

«نرجو لفتة من المسؤولين تنقذنا من هذه المعاناة» قال.

فهل من منقذ من المعاناة؟

رأيته يزحف، منساباً بهدوء، لا يكاد يتلوّى، على الموكيت الأخضر، جلده فضيّ ولامع يعكس ضوء النيون المشعّ من وراء الزجاج اللبني الصناعي في سقف البوينج ٧٤٧ القادمة من سنغافورة إلى مطار لاهور. وأعشاب الموكيت يانعة غضرة تتموّج برقّة وعليها ندى.

نفثات لا تكاد تحسّ من رائحة الكارِي والبهار كأنّما تهبّ من جلد المقاعد ومن بين سيقان الأعشاب الهفهافة اللدنة، مرسومة بدقّة، غضّة، مهندسة وهي غير قابلة للهندسة.

قلت: ثعبان كاليفورنيا، أم كوبرا إيزه؟

وكأن لم يره أحد غيري. وعندي لذلك ما يشبه الفخر والاعتزاز.

أهذه البشارة؟

أم النذير؟

لي وحدي.

الطائرة الضخمة تنزل على الرمل، بنعومة، وعجلاتها العريضة تغوص فيه، دون أهون صدمة، على حرير، تنساب قليلاً إلى الأمام، وأنزل على الدرجات الحديديّة المضلّعة بحزوز بارزة في ترام الرمل، وقدماي الحافيتان تضربان في الجسد المنهار. أحسّ، بلذّة، دفئها وبلولتها الخفيّة، لا تثور تحت قدميّ أدنى هبوة من الرمال البيضاء التي تومض فيها حبيبات من دقيق معدنيّ متلألئ، أو طحين زجاجيّ ممتزج بلحم الرمال متماسك القوام.

تلال الرمل المتموّجة على أطرافها الآن غـابات النخـل القديمـة في سيدي بِشْر. ظلال سعفها في الظهر القائظ جافّة ومنعشـة معاً، فيهـا روح متعة وسكينة كاملة، وسلام للروح الهائشة.

أرى، من علٍ، موج البحر المزبد، بلا صوت، وكهوفاً منحوتة، لها أعمدة حجريّة مربّعة، تحت سطح الماء، وفيلة العشق تحملها على رؤوسهـا المسطّحة وخراطيمهـا القويّـة المرفـوعـة إلى أعـلى. صخـر الكهوف الخفيّة لدن وصلب معاً، أريـد أن أتمرّغ عـلى رقرقـاته ـ كـما أتمـرّغ عـلى جسـد الـرمـال ـ بـذات الحسّ بـالـراحـة، وذات الحسّ بالأمان.

ترام الرمل يصلصل ويتعرّج في مساره، على يساري. ينساب على ربوة مرتفعة صلبة، جـدارها الـرمليّ الصلب منحـوت بفؤوس الفعلة الصعايدة، تسنده عوارض خشبيّة طويلة وضخمة.

صخر الشاطئ ترغي فيه مـويجات داكنـة الخضرة، طحالب لـزجة تنمـو، بشراهة، عـلى حجر البنـاء المهجور المتخلّف من بنـاء كازينـو سـان استيفانـو القديم، عـلى بحر زيـزينيا أم بحـر طرابـزنده؟ بحـر القلب الخفيّ أم بحر الظلمات الذي لا تمخره سفينة؟

هل أنزل الآن إلى كهف اللذّة الطريّ المفتوح، أم لا سبيل أمامي إليه، بين هذه الصخور جارحة السنان وطحالب الموت؟

احتكاك قدميّ على الحجر الحادّ وشظايـا القواقـع المهشّمة أحسّهـا مسحوقاً مسنّناً من نثار زجاج غير شفّاف.

طيور النورس حجارة مقذوفة عليّ من فوق، مسدّدة إليّ من صفحة اليمّ.

أحني رأسي بسرعة مفاجئة، على غير إرادة، وأرفع ذراعيّ أحمي وجهي، أتفادى خبطات النوارس الأبابيل متصلّبة الأجنحة.

وتغوص ساقاي في فجوة عميقة من الرمل الأبيض المذرور.

ولا نجاة لي.

من ينقذني من هذا الجسد المعذّب، المقضيّ عليه؟

أمّا إلى يميني فبيوت رأس التين والأنفوشي وبحري، واطئة، مبلولة الحيطان، ناصلة الحجر.

كان الثعبان قد خرج من الباب، وانسلّ بسرعة على الأرض الترابيّة الرمليّة الرطبة.

لم يقربه أحد.

بل وسّعوا له. قال لي الواد مرسي الجرسون، وهو يقدّم لي القهوة المحوّجة على الصينيّة النحاس المدوّرة المطبقة قليلاً:

- لا يا عم. وانا مالي. دا بركة الحتّة كلّتها. أضربه ازاي يا سيدنا لفندي؟ دي وليفته مستنياه. اللّي يمسّه حتبخ في عينيه، تجيب داغه، في ثانية يا بويا.. اللهمّ احفظنا.

قال لي إنّه مهما حطّمنا رأسه فسيذهب إلى أليفته - بعد أن يموت - وعيناه قد رجعتا مفتوحتين وفيهما صورة من قتله. وسوف تعرف أنثاه كيف تناله.

تأتيه ولها نفخ ورعيد وهديد تحرق كلّ شيء في طريقها إلى

ضحيّتها، مسحوراً بنظرتها، وعلى رأسها إكليلها المعمول من ثلاث قنازع برّاقة بشتّى الألوان.

تغرز ذيلها في الأرض، تنتصب كالعود، وهي تفحّ، ثمّ تثب كالطير على القاتل المقتول.

يتيبّس فور طَعْنتها لدْغتها نهْشتها.

وينزف الدم الأسود.

القيء والشلل والسقوط. القاتل القتيل يعرف آلام الجحيم كلّها في أقلّ من ثانية. من غير ثمن.

صورة وجهك الأسيل مطبوعة على حدقتيْ عينيّ، حتّى بعد أن أموت.

تنبحني الكلاب بشدّة، في سكك الجبّانة العتيقة، بين حيطان القبور المتداعية. تهت عن الطريق إلى قبر أمّي الذي عليه اسمي منقوشاً بالخطّ النسخ على رخامة بيضاء، هل هو قبري؟ وكان عم مسيحة الآن قد تهدّم بنيانه الجسيم، هائش اللحية، غير قادر على الحركة، بوابير الجاز التي تفحّ تحت قلقاس الغطاس انطفأت من سنين، حلّ محلّها فرن بوتاجاز عصري أبيض شيك في العشّة التي ابتنت الآن بالحجر وأصبح لها باب خشبيّ مردود عليها.

السور الأبيض على يساري ممتدّ إلى ما لانهاية لا أعرف إلام يفضي.

بارحت أحلام النور والظلّ وصورها المهتزّة بالأبيض والأسود.

احترقت الآن سينما ماجستيك الواسعة الجميلة وحلّ محلّها دكّان

جزَم، وإن ظلّ برجُها الدائريُّ مخروطيُّ القمّة، شامخاً.

كانوا قد أغلقوا الباب الطالع على شارع سعد زغلول والذي تأتيه من عتمة الصالة الداخليّة إلى ردهة دائريّة فسيحة فيها واجهات زجاجيّة عالية ومقوّسة تضيء فيها ـ حتّى الساعة عشرة مساء ـ صور الممثّلين الأنيقة مصنوعة العيون مصفوفة الشعر باتقان.

خرجت، مع جمهور حفلة الساعة ١٢، من الأبواب الجانبيّة الحديديّة الصغيرة، على الشارع الطويل الخاوي الممتدّ إلى ما لانهاية.

ليل الاسكندريّة صافٍ ومُغْوٍ وبليلٌ فيه دفء مريح منعش لا أجد مثله أبداً في النهار، ولا في أيّ مكان على الأرض.

ولحقت بنيامين قبل أن يقفل أبوابه، الساعة اثنين الصُبحْ، وأخذت سندوتش فول بالطماطم والجرجير وسندويش فلافل بالطحينة البيضا، ودفعت ٢٤ مليماً فكّة.

هل ينتهي بي هذا الشارع المقفر إلى شارع السلطان حسين، ومسرح الجلوب؟

ولكنّه لا ينتهي.

لمحتها قادمة من بعيد، من الناحية الأخرى.

جاكتّها الجلديّة التّرواكار، عريضة الكتفين، تنزل إلى ما فوق ركبتيها العاريتين، جلدها أشهب يومض.

ولّما اقتربت رأيت أنّ عينيها المدوّرتين المتعبتين، نصف مغمضتين، وأنّ زواق شفتيها وخدّيها فاقع، وهي تنسلّ، لا تكاد تتلفّت، تحت السور الأبيض الذاهب إلى غير غاية. ولّما حاذتني قلت: «صباح

الخير» فشبكت ذراعها على الفور بذراعي، دون كلمة، وأحسست جسمها نديًّا وبارداً، وأردت - دون إرادة - أن أدفئها بحنانٍ جسديٍّ ليس فيه شهوة قطّ، وقد انتصبت وهي تلتصق بي، عارفة، في صمت.

لم يهتمّ موظّف الاستقبال نصف النائم في «دندرة» إلاّ بما نفحتُهُ. واضح أنّه يعرفها، ويعرف زبائنها آخر الليل.

وكان السرير نظيفاً على غير ما أتوقّع، ومندًّى أهون ندى من نفث البحر القريب، وللملاءات ونحن نرفعها حفيف يختلط بوشيش ضربات الموج الخافت الرتيب على أحجار سور الكورنيش.

عندما خلعتْ الجاكتّة الجلد الاصطناعي فضيّة الوميض ورطبة اللمس رأيت أنّها عارية تماماً تحتها.

تمدّدتْ فوراً على السرير، ثدياها صغيران ممتلئان أسمران غير متهدّلين، ووسطها رفيع جدّاً. لمّت ساقيها الناحلتين ولفّت رأسها بذراعيها، ورأيت أثر ندوب قديمة على فخذيها، وراحت فجأة في النوم.

ضحكت لنفسي دون صوت.

لم أغطّها بملاءة السرير، قلتُ الدنيا حرّ على كلّ حال. تركتها عارية، مكشوفة، متاحة، لا منعة لها، قلت لنفسي مغطّاة بستر الغلابة المعذّبات، حتّى وإن لم تكن تعرف. استر يا ربّ على ولايانا. ولمّا حضنت جسمها الهزيل إليّ لم تحسّ بي، وندّ عنها صوت أشبه بأنين بنت مرتاحة وواثقة وآمنة. ونمت.

تـواقعنا، بعـد ذلك بقليـل، أو بفـترة، نصف نـائمين، في حلم الفجـر، بصمت، ودأب كالمأخوذين، وشقشقـة نور الشفق لّما تكـد تتسلّل من خصاص النافـذة العاليـة المقفلة، ووشيش الموج قـد علا، وكان الولوج فيها ناعماً، ومحتوماً، بـلا لذّة تقريباً، كـأنّه بـلا وعي، كأنّه تلبية لأمر لا يُرد. وعدنا إلى النوم على الفور.

وعنـدمـا استيقـظت في بهـرة الصبـح وجـدت أنّ السـاعـة عشرة ونصف، وأصوات شارع سعد زغلول تصعد إليّ من النافذة الـطويلة المـردودة، خشبها متـآكل قليـلاً، وابتسمت عندمـا تذكّـرت فجأة أنّ شعرها المفلفـل، المكتكت، تحت فمي، كان يفـوح منه عـطر صندل قوي، وأنّه كان على بـطنها الهضيم نـدب أبيض رفيع متمـوّج من أثر ولادة قيصريّة وأنّه كان تحت ثديها ـ الشمال أم اليمين؟ ـ بقعـة سوداء غير منتظمة الحوافّ. وعددت نقودي القليلة في جيب البـنـطلون المثنيّ بعناية على ظهر الكرسي الوحيد الاستيل عالي الظهر، فوجدتها ناقصة خمسة وعشرين قرشاً بالضبط، يعني التعريفة المعتادة لا أكثر ولا أقل.

أم أنّ هذا ما حدث؟

لم أرهـا قطّ بعدهـا، مـع أنّني بحثت عنهـا، كثيـراً، حتّى سلكت سكّة المقابر وأسريت تحت أسوارها الطويلة وسمعت هـرير آنـوب في العتمة تلتفّ حول وسطه الكوبـرا الملكيّة، مميتي وفـاتح فمي وبـاعث مِزَق روحي من المهات ـ إن كان ثمّت ـ يرعاها سربـاً هائـماً لا تعرف مستقرّاً.

ولّما ذهبت إلى الجزيرة التي يسيل عندها مـاء النيل كـانت الغرانيق بعيدة التطواف القادمة من أقصى بـلاد خراسـان حيث الثلج الدائم،

تقاتِل رجلاً من الحجر قامته قدر مائة ذراع، تطير وتحوم وتهدف إلى عينيه الفاغرتين وقد لفّ على رأسه ثعبانه الملكيّ، وهو يخبطها بذراعيه في حركات متصلّبة، بينما الكوبرا تهبّ وتنفخ عليها وينشقّ فمها عن لسانها المزدوج الحادّ، والغرانيق ترتفع جدّاً ثمّ تُسفّ وهي تصيح.

كان الرجل الهائل الجسيم واقفاً على أعلى صرحٍ مشيّد كالجبال، يمسك في يده فتاة تبدو كالعصفورة، تتأرجح أطرافها الأربعة وتتلوّى في الهواء، وتهبّ الرياح التي تثيرها الغرانيق حديديّةُ الشكل متوازية الأجنحة، فيرتفع طرف فستانها الخفيف عن ساقين أملودين صغيرين جدّاً في يد الملك القرد المهول.

بكيتُ، في السرّ بالدموع السخنة الخفيّة، عندما لم تأخذني أمّي إلى سينما ستراند، عندما لم أرَ «كنج كونج». ولم أنس لوعة الخذلان حتّى بعد ستّين عاماً. يا هووه! ستّين عاماً. مازلت أذوق على طرف اللسان طعم ملح الدمع الذي سقط من ذلك الطفل، كأنّما رغماً عنه - هل كان ذلك سنة ١٩٣٦؟ - لأنّه حُرم - بعد وعد - من متعة تحقيق خيالات هائمة.

رَسَم خطوطاً ساذجة للرؤى الساذجة، ومازال، لكنّها لم تحمل إليه عزاء، لا عندئذ ولا الآن.

نامت الغرانيق، وضعت رؤوسها تحت أجنحتها، واقفة على ساق واحدة. نامت الغرانيق.

لكن شيخها لم ينم، ولا ينام أبد الدهر.

عنّابي. . عنّابي
يا خدود الحليوة. .
مجاريح الهوى - كما هوذائع ومعروف - ليس لهم أَطِبَّة.
ولا المحبوب طبيب، ولا عنده دوا.
هل يترصَّدني آنوب، كما يرصدنا جميعاً، إن شاء الله؟

سمعت هريره الأبحّ وشممت أنفاسه النتنة، وجهه لا أراه، أعرف أنّه خلفي، قريب جدّاً منّي، أعرف أنّه ممدود الخطم ناقٌ الأنياب. سرت إليّ منه برودة لم أعرف مثلها قطّ، ذراعاه البشريّتان تستديران بي، لهما حسّ سيقان الحيوان الأشعر كثيف الجلد.

أمّا التماسيح - في وسط شوارع رأس التين، أم بين دُورِ صندابورة؟ - فقد كانت تزحف ببطونها قويّة الحراشيف على التراب الرمليّ الرطب، ذيولها الضخمة تخبط الحيطان متّجهة، بتصميم، إلى الماء الحلو البعيد، هل تصل؟

وعندئذ فتح الناس أعينهم ورأوا الحيّة العظيمة وقد انتصبت برأسها، وقامت بجسدها الأملس، ونفثت شيئاً بصوتٍ ضخمٍ محبوس، بشهقة كأنّها أنين اللذّة. وتصلّب ركاب البوينج ٧٤٧ في مقاعدهم، والطائرة تشقّ بهم أطباق السماء، بصوت هدير محرّكاتها النفّاثة الأربعة، منتظماً، رتيباً. تحت أنوار النيون اللبنيّة من وراء مسطّحاتها المستطيلة المثبتة في السقف. هبّت رياح مسمومة، تجمّد كلّ الناس، دون حياة، دون رجعة، ومضت الطائرة وحدها تمخر الأجواء الموحشة، دون أن تتوقّف، دون أن تسقط، دون أن ترتفع. الطيّار الآلي لا يموت، هو.

أمّا أنا فقد نظرتُ إلى عينيْ الحيّة العظيمة، ونظرتْ إلى عينيّ.

ومن نظرتها النجلاء، مصفرّة وخضراء وكلّها شبق، جاحظة العينين قليلاً، مدوّرة الحدق، جاءتني حياةً شرسةً، مازالت تفتك بي.

وما من رقيةَ تنفعني من لدغة هذه النظرة الأولى.

كلّ الخطوط وكلّ الحروف وكلّ التعازيم، أعيدها وأزيدها، لا تبرئني، ولا تبرّرني.

النزوة الرابعة

نزوة مختنقة في الفجر

كان الفأر الأبيض الكبير ينقر الصخر.

وكان وديع الشكل ولكنّه مخيف من غير ضجّة، من غير إعلان، شأن كلّ شيء مخيف حقّاً.

سرب من القطط المشمشيّ تدور، من تحت، ولا تهاجم؛ تناور، وتقدم، وتحجم، وتحوم، في غير شجاعة، في شيء من التحوُّط، تحت سفح الصخرة، تحت هذا الفأر الوحيد الذي أجد نفسي ممسكاً به، كما أمسك سلاحاً بيدي.

القطط تتكاثر في الغرف الجانبيّة الأخرى، في بيوت الشوارع الأخرى التي تنشعب من تحت قدمي الصخرة السامقة الخشنة.

البيوت - كما أراها - قليلة على هذا الشطّ الصخريّ، والبحر يضرب الحجر القديم برفق ولكن بعناد وتصميم، ليس فيه رحمة، كالعادة.

الفأر هو الأمل النهائي الوحيد.
وهو، فيما أفكر، الفأر الوحيد الباقي.
لم يعد هناك من جنسه أحد غيره.

لم يعد هناك من سلاح غيره.

والقطط تداور وتراوغ، تموء وكأنها تنبح كالكلاب التي تهاجم عدوًّا تعرف أنّه صعب المنال.

أقول لنفسي: المنطق معكوس، أليس كذلك؟ ومع ذلك هو طبيعيّ جدّاً، هو الشيء الذي لا شيء طبيعيّاً إلّاه. لم يخطر لي حقّاً، لم يحدث قطّ، لم أقل لنفسي قطّ أنّ فيه شيئاً غير طبيعي. هو قانون الحياة المسلّم به، أن هذا الحيوان الأبيض الهادئ البريء وحش حقيقي، وأنّه يخيف، بل يفزع هذه الكلاب القطط الضباع بنات آوى.

بل إنّه يجب عليّ - حتّى - أن أظلّ ممسكاً به لا أفلته من يديّ، أن أتحكّم فيه، أن أسيطر عليه وأكبحه حتّى لا يطيح بهذا السرب القطيع الجحفل الذي يبدو أنّه لا حول له ولا طاقة به عليه، بل حتّى لا يطيح بي.

أهذه لوائح الأسرار، وشوارق خطفات الأنوار؟

أم هو الوضوح بعينه؟

نوافح من عبق ونتن تهبّ من مكامن الخفاء؟

مرارة الملح في عينيه، وقسوة الحيطان تكبّله، والسحب تجري فوق السقوف، كأنها ذكريات.

قد أُنسيَ طعم السماوات الفساح، وعلى صدره جبال.

ذراعاه متقبّضتان، تضمّان الفراغ، وأصابعه شفّها الغضب.

أسوار من الصخر سِماق، بينه وطراوة الحلم البائد الأنيق.

يداه متوتّرتان، لم تصلا، ولا تصلان إلى شيء.

حطّ على حشاه شوق كئيب، الحلم يتنزّى، ويتلوّى من الضربات، ولا يموت. يغتذي المُرّ من جرح الصخور، والصخر ينهج من غير شِفاه.

في شارع حارّ ورطب ومتّقد بأنوار كلوبات الغاز ضاربة الوشيش كانت المرأة تجلس أمام مقلاة الموز يئزّ فيها زيت النخيل ويغلي في الماعون الأسود العريض، تبتسم عن نواجذ دامية متآكلة من أوراق حمراء يظلُّون يمضغونها ويلوكونها وتسيل عصاراتها القانية على أركان أفواههم. ابتسامة كالي الغاضبة المبغضة للبشر. رائحة الزيت الاستوائيّة يغلي ويفور، ونفح الموز الذي يحمرّ ويفوح، تنفذ إلى الجلد توشك أن تدفعك أوّل الأمر للقيء، حتّى تعتادها، وتظنّ أنّك لن تستطيع التخلُّص منها ولو بعد ألف حمّام، وتنظر إليك المرأة بعينين عجوزين ماكرتين وساخرتين، نظرة غير عاقلة، تقريباً، أهي نفس نظرة العظاة الهائلة، ديناصور صغير حيّ ومرعب، إذ وقفت لي - كأنّما تعترضني، تعترض على وجودي نفسه - في فناء المدرسة الايديولوجيّة في وينيبا تحت تمثال نكروما الأُوساجيفو البرونزي الأسود، صارماً وعنده معرفة التاريخ النهائيّة التي أحبطت بالطبع، من يذكره الآن؟ نظرة من وراء التاريخ من عينين لا تطرفان، أم هي السحلية الهائلة في حوش بيت الخرّاطين العتيق في أخميم، تحت السلّم الخشبي الذي وقعت من عليه، تدحرجت حتّى الأرض الترابيّة الرمليّة الرفيقة وجرحت في ركبتي اليمنى جرحاً لم يندمل حتّى الآن - يعني ترك ندبة من الجلد شفيفة ورقيقة كالغشاء، حتّى بعد ستّين سنة. كانت السحلية ثابتة، خشنة الحراشيف، تلهث، بذيئة البطن المليء، ترفع

رأسها إلى ما يقارب كتفي، واقفة على ساقيها الخلفيّتين وذيلها القوي، لم ترجع، واجهتني كأنّها تقول شيئاً لذلك الطفل وهو بعد في سنيه الأولى. ضحكت وأنا أسال الآن: أكانت هذه أمُّ التنين؟

عندما كنت ترسم النمر والأسد، بالقلم الرصاص، تخطّ وتمحو، للواجب الذي عليك أن تعمله لمدرّس «الأشياء» في مدرسة النيل الابتدائيّة في غيط العنب، كانت الوحوش تتلبّسها حياةٌ فجائيّة، وتعمر غرفتك.

تنزل من على المائدة الرخاميّة البيضاويّة التي فرشت عليها ورقة جورنال - أهو البلاغ أم الجهاد؟ - ورصصت عليه كتبك المدرسيّة وكرّاساتك التي حسب نظام وزارة المعارف العموميّة: أطع أباك وأمّك، اغسل يديك قبل الأكل وبعده، وكنت قد أخفيت رواية الجيب تحتها - حتّى لا تراها أمّك.

تخرج من ورق الكرّاسة إذن، وتفتح أفواهها عن أنياب مكشوفة من صنعك أنت، نمور صغيرة، بثلاث أرجل فقط، لأنّك نسيت أن ترسم الرجل الرابعة، تثب من على المائدة إلى أرض الغرفة الليليّة الهادئة، على نور اللمبة نمرة ١٠ مهتزّ الظلال.

تكبر الوحوش فجأة، وهي عارفة أنّها مدينة لك بوجودها، تنظر إليك النظرة الحيوانيّة الفاهمة التي لا يمكن لك أن تسبر معناها.

الأسد له معرفة شعراء ملبّدة، وعين واحدة، ألم ترسم له عيناً واحدة؟ ولبؤته، جمّاء، هضيمة الخصر، رأسها حادّ القسمات نظيف العظام، مسحوبة البطن، أرشق وأنزى وأسرع خطى وأخفّ جسماً،

خطوها أنشط وأوقع، تلتصق بساقيك وهي تهرّ وتموء وترفع إليك عينيها الصفراوين، تلعق جسمك بلسانٍ خشن ومبلّل وسخن.

أمّا النمر الأعرج المرقّط فترتفع عظام ظهره، وهو يظلع في الغرفة. يقف على ساقه الخلفيّة الواحدة، مثل النمر الذي على صابون نمر النابلسي الممتاز، فريد في نقائه وحيد في صفاته إنتاج مصانع حسن نمر نابلس بفلسطين القطعة منه تقوم مقام قطعتين أو قطعة ونصف من الأصناف العاديّة ولا تكلّف أكثر منها إلاّ بضعة ملّيمات الوكلاء الوحيدون للجملة بالمملكة المصريّة السادة سالم وسعيد بازرعة بالجماليّة تليفون ٤٢٨١٧ ويباع بالقطاعي في جميع محلاّت العطارة والبقالة اشتريته من عم محمود البقّال الذي على قمّة بيتنا في شارع الكروم والذي كنت أطلب منه حتّة حلاوة طحينيّة كلّ مرّة، فيقطعها لي بالسكّين من قرص الحلاوة الكبير الضخم المندّى المغطّى بورق زبدة، ويقرّبها من فمي وهي على طرف السكّين الهائلة المرعبة.

وتملأ الوحوش عليك غرفتك، وعلى ألفتها بك، وتمسّحها برجليك، وحرارة جسومها التي تسري منها إلى ساقيك، فإنّها تجأر وتزأر وتزمجر، لا يسمعها أحد غيرك، وتظلّ شديدة الحضور في ليلك، بكلّ قوّتها، وشراستها، وغرابتها، وتظلّ تحمل في دخيلتها تهديداً باطنيّاً لك، كأنّه تهديد منك إليك، وليس غريباً عنك.

استيقظت بعد منتصف الليل، كنت قد سافرت بالسيّارة مرّتين ذهاباً ومجيئاً، استغرق السفر ساعات على الطريق الأسفلت الذي تحفّه أحراش تكاد تقتحمه، وتشقّ أنوار السيّارة طريقها في قلب الأجمات المتكاثفة المنذرة. السيّارة تضرب في سكّتها بسرعة خاطفة

بين جانبي الأدغال التي تظلم تماماً بمجرَّد أن تتركهاالسيَّارة، مقطوعة الشقَّين، مسكونة بأشباح الوحوش المتوهِّمة الماثلة. وفيها بعد سوف تنقلب السيَّارة التي كانت تقلّ المندوب اللبنانيّ الشابّ فتقتله على الفور، وسوف أستمرّ أذرع هذا الطريق القاتل عدَّة مرَّات، أنفذ خطفاً كمن تلاحقني الغُولات داميات الأنياب، بين جموح شُموسٍ غير مرئيّة وميدان النجم الأسود وفندق وندسور، في أكرا.

كان العرق بارداً على جسمي المنهك، ودقَّات الطبل في «النايت كلوب» تخترق السقف إليّ، عويل الساكسفون، ونحيب الجاز الزنجي الذي عاد إلى أهله يطوّعونه لإيقاعاتهم، هم، من جديد.

البنت التي رأيتها، من السيَّارة، بعد الظهر، في حوش البيت الضيّق المترب الحارّ، كانت واقفة تتمطّى، عارية الصدر تماماً، في الرابعة عشرة ربما، أو أصغر، نهداها قائمان صغيران وممتلئان، الحلمات تبرز مكوّرة، من منطقة السواد الخشن المحبّب الواسعة الناتئة على قمّة كلّ ربوة ناهضة متحدِّية، تبتسم ابتسامة غارقة في جسمها، ترفع ذراعيها وتمدّهما حتّى الآخر في راحة عضويّة بحتة، لا تعي شيئاً آخر غير متعة خالصة بوحش الجسد الكامن المتلبّسها.

رامة تحت الدوش المنهمر بمياه ساخنة مشربّة بحيوان جسدها كلّه مغمضة عينيها مبتسمة نصف ابتسامة، غير عاقلة وغير إنسانية تقريباً، ناسية كلّ شيء، كأنَّها - أو هي بالفعل - لا تحسّ بنظرتي الأكّالة المنهومة إلى هذه الجثمانيّة كاملة التدويرات، ولا بتوتّر يديّ وذراعيّ الشرستين اللتين سوف تحيطان بها تريدان أن تضغطاها إليّ حتّى تنسحق وتندمج فيّ لا يعود ثمَّ شقّ تنفذ منه نسمة بين الجسدين

المتلاصقين حتّى ليكادان يستحيلان جسماً واحداً لا فجوة فيه ولا أدنى فرجة بين أشلائه المتلاحمة المتنزّية.

انكسار الأضلاع والأطراف والتئامها مرّة أخرى دون أن تعود أبداً إلى نسقها الأوّل، الوسط ـ مثل الموديلات الجبس أو الخشب التي يعرفها الفنّانون أو تعرضها واجهات المحلاّت ـ لم يتّسق تماماً مع أسفل الصدر، ظلّ فيه نتوء اللصق غير المحكم، بعد المكسر، السيقان حلّت إحداها محلّ الأخرى، معووجة قليلاً، والقدمان قد رُكّبتا في اتجاه معكوس، وثَمّ مفاصل منزوعة لم تجد مكانها قطّ فتركت محلّها فراغات لها لون الجبس.

الشفق الأحمر الصموت في سماء مقطوعة تطلّ عليّ، معابثة ومراوِغة، من سقف غرفة نومي المزدحمة.

فهل أوشكت هذه النزوة أن تأتي إلى خاتمة؟

أليس ثمّ نهاية؟

لا.. لا.. لا...

مسّته، في الشفق، رقّة شفتيها، وأصابعه ترعى شعرها الوحف الأثيث، عيناها تبسمان على صدره.

ابتسامة مرّة طعين، لا تلتئم، وشوق مدحور.

كلّ ما يعرفه منها ابتسامة من غريب، كنصب في ميدان جديب، كلغة غير مفهومة.

رئتاه مختنقتان، تتلمّسان نسمة من هواء، من صخر مسدود.

ايفيت في بنطلون حريري كثيف النسيج، داكن الخضرة، لاصق

بساقيها وفخذيها حتّى يجسّم ما بينهما ويكوّر بطنها المليء، جاءت، حسب الميعاد، أمام «المونسنيور». .

وكان المطر رذاذاً والبحر داكن الزرقة، أنوار قليلة تنعكس على سطحه، والجو دافئ على غير العادة في آخر نوفمبر.

وجدنا الباب الزجاجيّ مغلقاً، وخرج لنا من وراء الستائر الحمراء الثقيلة من يقول إنّ الكازينو ليس مفتوحاً الليلة، كده، من غير أسباب.

فهمنا ـ من السيّارات الحمراء الفارهة الرابضة على الكورنيش، ومن جوّ الرهبة والتوتّر، ومن مجرّد وجود هؤلاء الأشخاص، طوالاً، أعوادهم قائمة وأجسامهم جهيرة ووجوههم جافية، واقفين على النواصي دون حراك ـ أنّ الملك كان بالداخل. كان أحياناً يطبّ من مصر لقضاء سهرة.

قُلنا نذهب إلى دوفيل في ستانلي، وأخذنا تاكسي، وأخذتها، برفق، في عتمة السيّارة، إلى جنبي، فالتصقت بي، وهي تكاد تموء كقطّة بريّة مغتلمة قليلاً تطلب السفاد وشممت منها رائحة مميّزة حرّيفة.

وفي الدوفيل وجدنا جورج وميشيل وفهمي مع صديقاتهم سيلفيا ومادلين وستيفو ضخمة الثديين، وجاء بعد قليل كرّاز وزوجته الرشيقة المِحَنْدَأة لا تضارعها امرأة في أناقة السمت، وكان رقصنا في غمرة الويسكي وصُفرة ألوان المصابيح المدوّرة الصغيرة كأنّه غرق متعمّد في بحيرات الجسد وفي حمأة روحٍ مضطربة.

حكاية هذه الروح لا تريد أن تنتهي.
مشتبكة متواشجة مع جسمها الذي يتخلّى عنها بالتدريج، ويتقوّض.
«ماذا لقيت من الهوى.. ولقينا؟».

تحت شجرة الجهنميّة الهائلة الأعضاء، في سوق البرتقال، تلال من الثمار الناضجة الصفراء، ونصبات بدائيّة من الخشب، مثل تلك التي عندنا في الموسكي أو جنب العمود في كرموز، عليها ملابس أطفال وحريمي وقمصان وبلوزات نايلون وسوتيانات مخرّمة وكيلوتات ملوّنة زبالة أسواق العالم مرميّة مكوّمة مفرودة ومطويّة ومعلّقة ومدلدلة على حبال مرتخية الأوصال، بمشابك غسيل بلاستيك، والبائعة الجسيمة الأرداف عليها تلال من اللحم تربض على الأرض كومة من الجسد الأسود اللامع المنعش تحت ثوبها الملوّن، مدهشة في صباها ونضارتها، أمامها قصاع صغيرة كثيرة مليئة بحبوب دقيقة شكلها مثل شكل حبّة البركة أو العدس الأسود وأوراق شجر جافّة لها رائحة نفّاذة وسوائل لزجة داكنة الخضرة داكنة الزرقة عليها غشاء متموّج نصف شفّاف، وأيضاً حبّات الكولا وجوزة الطيب وصنوف من البهارات.

قالت لي وهي تشير إليّ بأصبع مدملجة سوداء الجلد، لامعة، بيضاء من الداخل:
ـ تعال يا حليوة، يا صغيري، تعال إلى «مامي» تعطيك من عندها ما تسمّن به نحولك، وتُنضج شبابك. تعال تسترح عندي.

وضحكت. ضحكة كالي المغضبة؟ أم ضحكة السيجيريا متنوّعة الشكول وافرة الأثداء، مُحِبّة؟

لكنّي ارتعدت، كأنّما استشرافاً لما سوف يحيق بي من عشق.

أمّـا البنت التي ضربت بـالـروج القـاني عميقـاً في لمى شفتيهـا البارزتين، متدلّيتين قليلاً مكشوفتين من الداخـل قليلاً، فقـد رقصت معي في «النـايت وندسـور» على صرخـات الجـاز المصنـوع والـوحشيّ معاً، وهي في فستانها السـاتان الأحمر الذي تنزل حمالاتـه حتّى منتصف الظهر وحتّى قمّة ثدييها المهتزّين مازالا برّيين غير مـروّضين، مفـترسة العينـين، شيّطت الشمس شعـرها المفلفـل الفوّاح، وأحسست بـطنها المقبّب يلتصق بانتصابي في حميا سكر الروح بنشوات جسـد حلّت فيه واستولت عليه ينقر ويقرض في صخـر لدن ملفـوف بالحـرير الأصفر مفصّلاً من قماش براشوت الانجليز الذي كـان يباع بـالغالي في زنقـة الستّات وبالمـزاد العلني في سوق القبـاري صنعت منه غـلالات رقيقة ومطواع تحكم دوران الردفين الصغيرين وتمسك البطن الـرفيع مسكـة حنّانة وتوثق ربطاتها بمخالب مبطّنة ناعمة حـول النهدين فتصنـع منهما نداءً متحدّياً في قبّتين نابضتين وباذختين مكبوحتين وجامحتين.

هل تذكر دروس الرقص الأولى في بيتك في شارع الباشا كليوباترا الحمّامات، وأنت كنت في حالة حبّ بلا أمل - كـما يُقال - أو بـلا كبير أمل، شأن كـلّ المحبّين عـلى أيّامـك، وفي أيّامنـا هذه أيضـاً لأسباب مختلفة أو مؤتلفة غير مهمّ، وفتحي يعلّمك الخطوات الأولى أسطوانـة الكـومبارسيتـا المخرفشـة قليلاً تـدور على قـرص الجـرامفـون النقـالي الصغير الذي اشتريته نصف عمر بالتقسيط. وهل ذهبت إلى أكاديميّـة الرقص برئاسة الـبروفيسور اسبيرو الحائـز على دبلوم من معهـد اتحاد أساتذة الرقص بباريس بمعهـده في شارع النبي دانيـال، ولم تتقن هذه

اللعبة تماماً، قطّ، كأنَّ الموسيقى الشاقّة التي تمور بداخلك وتضطرب، عارمة، بجذاذات أحشائك المنهوشة بعربدة أخرى، كأنّها - أليس كذلك؟ - تعوق خلوصك لموسيقى الرقص السهلة، ديونيزيوس الذي يجأر ويخور لا يمكن أن يستمع إلى الإيقاعات الرخيّة، وأنت تقبض على أطراف السماء نفسها، ملء ذراعيك، في خبطات الطبل وصفقات الصناج، تهتف بالعالم في امتلاءات صدرك بالأبواق، الأكوان الشاسعة تتساقط بين يديك فتجمعها في فرح شرس يرقّص الأفلاك نفسها، وحيطان العالم قد أصبحت هشّة تذروها الرياح فتسقط عنها نُفاضة النجوم.

رُقىً، تتلوها شفاه أنثويّة، من محبّات صابية.

كتب محي عبد الرحمن للأخبار في ١٩٨٢/٦/٢٠:

خطف نجّار طفلة صغيرة من أمام منزلها بامبابة ليعرضها للبيع في بني سويف. تمكّن رجال مباحث الجيزة من القبض عليه وأمرت النيابة بحبسه.

وكان العقيد محمد فوده وكيل مباحث الجيزة يرأس كميناً ليليّاً لتفتيش السيارات. هبط راكب من الأوتوبيس المتّجه إلى أسيوط وأخبره بأنّه يشكّ في راكب معه طفلة تبكي بحرارة.

وبمناقشة الراكب الذي تبيّن أنّه نجّار زعم أنَّ الطفلة ابنته. سأل العقيد فوده الطفلة فقالت إنَّ اسمها رحاب وأنّها لا تعرف الراكب. انهار الراكب واعترف للمقدّم ابراهيم عبد العليم أنّه خطف الطفلة وهي تلعب أمام منزلها بامبابة ليعرضها للبيع لأيّ سيّدة عاقر أو أسرة تريد خادمة.

قام العميد ممدوح الجوهري باستدعاء أحمد محمد عمارة والد

الطفلة ووالدتها سعدية موسى ولم يصدّقا أعينهما واحتضنا الطفلة التي عادت بعد خطفها بثلاث ساعات فقط وأمرت النيابة بحبس النجّار المتّهم.

خدعونا فقالوا عصر التنوير خدعونا فقالوا حقوق الإنسان خدعونا فقالوا السنة الدولية للطفل. خدعونا. فقط. ليس غير أنّهم خدعونا، أو أنّنا اخترنا أن نكون مخدوعين. ألم يكن الأطفال على طول العصور سلعاً تُباع وتشترى وتستغلّ وتستهلك عبر كلّ أسواق النخاسة وساحات السبي في كل أنحاء العالم. ومازالوا. مازالوا، هم والكبار أيضاً. ولهم سوق رائجة في نيجيريا وزيمبابوي والبرازيل والسودان مازالوا يُجمّعون ويُعبّأون تحت الطلب في أكياس بلاستيك يباعون بالجملة والقطاعي الكِبد والكلاوي والفِشّة والبمبار والجوهرة كلّها جاهزة، وعبوات الدم الطازة، تُصنّف وتبرّد وتخزّن في الثلاّجات. مازالوا يمنعون عن حياتهم حتّى يكملوا جيوش المرتزقة والمقاتلين ـ بعد فترة التجهيز والتشطيب، ومازال منهم عندنا، اسمهم كلّهم بلْية أو دُقْدُق أو حَدُقّة، أو فقط «ياواد» . . «يا بتّ» يقضون طفولتهم سخرة ومذلّة تحت هياكل السيّارات ودكاكين السمكرة والدوكو وورش الحدادة، في الزيت الوسخ والكلام الوسخ واللبس الوسخ، أو في تسيىء البلاط ومسح طيز العيال، وتهنينهم وحملهم ـ وهم كالبغال ـ على الأكتاف المنحوفة الوهنانة.

خدعونا.

ألم يخدعونا؟

فلنقلها على الأقلّ. يا هروروه!

أمّا رحاب الطفلة البنت فأنثى صغيرة ـ من صورتها المنشورة على الملأ في الجورنال ـ إصبعها الصغيرة في فمها وشعرها الأسود غير ممشّط ينزل طويلاً ومتناثر الخصل في فوضى مغوية دون قصد، عيناها المتسائلتان واسعتان. أهذه نظرة براءة كاملة أم نظرة شيطنة هيّنة ولكنها مثيرة؟

لا. ليست بضاعة.

عندما سأله المحقّق: لماذا؟

لم يقل النجار فقط إنّه كان محتاجاً للقرشين، بل قال أيضاً:

ـ دا الشيطان هو اللّي وزّني يا بيه.. أعمل إيه؟

ثمّ التفت إلى البنت الطفلة نجلاء العينين وهمس، كأنّما لنفسه:

ـ أهو بيسلّط أبدان على أبدان.

كانت سطوة البنت عليه قاضية.

ربّما.

ترداد اسمك بين شفتيه، كالأنين، نداء عينيه في الظلام، ضجيج ألم طحين. صرخة الموت، تتردّد كلّ يوم، في أحراشه الموحشة، يتلقّفها الصدى الكتيم.

ألا تسمعين؟

انتحرت شغّالة فلبينيّة داخل شقّة مخدومها بشبرا. شنقت نفسها بحبل عندما علمت أنّ مخدومتها قرّرت الاستغناء عنها. تولّى مدحت عبد الفتّاح وكيل نيابة شمال القاهرة التحقيق وأمر بانتداب الطبيب الشرعي لتشريح الجثّة.

كان العقيد جمال عبد العال مأمور قسم شبرا قد تلقَّى بلاغاً من فوزية عواد المقيمة بشارع زين الدين بشبرا بالعثور على شغّالة ابنتها، الفلبينيّة، مشنوقة بشرفة الشقّة.

أكمل رشاد كامل حكاية تحقيقه الصحفي للأخبار يوم ١٩٨٧/٧/٥.

انتقل العقيدان سعيد عبد الهادي وكيل المباحث ومحمد رحمو مفتش مباحث شبرا إلى مكان الحادث.

تبيَّنَ أنَّ الشغّالة وتدعى تونج توماس (٢٥ سنة) حضرت من الكويت مع مخدومتها وزوجها لرعاية طفلتيها الصغيرتين، وأقاموا بشقّة والدة الزوجة بشبرا.

اكتشفت الزوجة أنَّ الشغّالة تأتي بأفعال شاذّة مع طفلتيها الصغيرتين، فقرَّرت الاستغناء عنها؛ بمجرَّد وصولها إلى الكويت، وأبلغتها بذلك، وخرجت مع زوجها لزيارة أحد أقاربهم.

عند عودتهما اكتشفا الحادث.

شنقت نفسها.

قال الطبيب الشرعي هبوط حاد بالدورة الدمويّة نتيجة كسر العظم اللامي. وقرَّر إرسال عيِّنة من الأمعاء للمعمل الجنائي لتحليلها.

شنقت نفسها.

ألف صنف وصنف يُصنَع منها العالم. وينفضّ.

أدغال وحوشي الداخلية مازالت تغصّ بسكّانها.

النزوة الخامسة

سراي المجيديّة

كنّا في جناح الفندق الذي يطلّ على نهر تجمَّد ماؤه، يبدو من النافذة العالية شريطاً أبيض برّاقاً، موجات سطحه جامدة الآن، داعية للتهوّر والسقوط في قبضة مثلوجة لا فكاك منها.

كان هواء التكييف ينزل من السقف دفقات وهبّات متقطّعة تنصب على المقاعد الحمراء الناصلة والسجّاد القديم الذي نحلت وبرته الباذخة نقوشه تتريّة الإلهام.

أهذه دموع تترقرق على انهيار صروحٍ أنت تعرف ـ وقد دفعت ثمن معرفتك ـ أنّها صروح عسف لا يُطاق؟

أم على أحلام ظلّت مستكنة، كفئران وديعة بيضاء هاربة في أركان الحيطان مذهّبة الزخرف التي بهت ذهبها، مختبئة في دواليب الملابس الفارغة التي يفوح منها عطن حلل عسكريّة عتيقة لا ينجاب.

لماذا هي حلل عسكريّة بالذات؟ قلت لنفسي
ولكنّي كنت موقناً
أهذه دموع؟
لست أدري.

فرغنا من أكل آخر ملعقة من الكافيار الأسود اللامع المحبّب الطريّ. فتات الخبز الأسود مازال متناثراً على رخام المائدة الثقيلة الضخمة بلون الجرانيت الأصهب المجزّع، راسخاً على السيقان الخشبيّة الحسيّة المنحوتة من الأبنوس.

عبد الحليم حافظ يشدو من المسجّل الصغير: في يوم، في شهر، في سنة.. تهدا الجراح وتنام.. وعمر جرحي أنا.. أطول من الأيام.. وداع يا حبّي، يا أحلام...

هل شجن الشدو هو الذي يصعد بالدموع من مكامنها؟

«في مدينة «تل بسطا» بالقرب من الزقازيق تمثال ضخم تتعرّى أمامه عشرات السيِّدات يوميًّا، لأنهنّ يعتقدن أنّه قادر على علاج المرأة العاقر. تأتي إليه، وتخلع ملابسها أمامه، ثمّ تصبّ على جسدها ماء من إبريق أسود موضوع أمامه. ثمّ تقذف بالإبريق في وجه تمثال آخر بجانبه. ثمّ تلبس ملابسها وهي قريرة العين، مطمئنّة إلى أنّ حلمها من إنجاب مولود سوف يتحقّق...»

نصّ ما كتبه سعيد الغزاوي، الزقازيق، إلى «الأهرام» في ٢١ نوفمبر ١٩٧٥.

قال صاحبي عرفته يا مولانا عندما كنت صبيًّا، في قرية المجيديّة. قرية كانت أيّامها صغيرة جدًّا، ازدحمت الآن بل اكتظّت. كان بيتهم القديم في حارة عوض الله. لا، ليس عبد الحليم يا أخي، قصدي الشيخ عبد الشفيع الفرماوي. كان قد راح، ورجع وأصبح له اسم في المجيديّة وبنى لنفسه بيتاً من الطوب الأحمر والأسمنت وسط بيوت

القرية المبنيّة من الطين وحاراتها الضيِّقة المتلوّية.

وحتّى بعد أن فتح الله عليه - لم يكن قد وصل بعد - كان لا يبخل علينا بالتلاوة بصوته الرخيم الأجشّ قليلاً، وتمكّنه المدهش من الإلقاء والترنيم، وكنت ماأزال في الابتدائيّة لم أذهب بعد لمدرسة التمريض، كان بيته الجديد في عينيّ فخماً ومؤثّثاً بأشياء لم أرَ مثلها من قبل، السجاجيد والستائر والطقم المذهّب وريش الطاووس المعلّق على حيطان مدهونة بالزيت، خضراء لامعة.

ولكنّه كان لا يحضر مولد سيدي الأربعين الذي كنت أفرح به، ألعب المراجيح، وأتفرّج على الغوازي اللاتي كنّ يأتين إليه، وعلى فرقة الثقافة الجماهيريّة التي تأتي إلينا من المركز لكي تمثّل لنا «ليالي الحصاد» سمعته يقول إنّ ذلك كلّه حرام في حرام.

أبي حكى لي حكاية زواجه. كان الشيخ طالباً بعد مازال في مدرسة منوف الابتدائيّة عندما زاره أبوه، الشيخ المهيب الكبير، ليحمل له الزوّادة من عيش البتّاو الناشف والجبن القريش والمشّ المعتبر وحتّة الزفر.

دخل على الغرفة التي كان يسكنها ابنه على سطح بيت عتيق، فوجد عبد الشفيع، على السطح، يساعد بنت الجيران على إنزال بلاص الماء من على رأسها، وهي تنهج موردة الخدَّين جدّاً، يشرّ الماء من البلاص، وتحت رجليها طست الغسيل الفارغ وكومة الهدوم، والشمس تضوي على ذراعي البنت المرفوعتين اللتين سقطت عنهما

الأكمام الواسعة، والماء يسرسب على صدرها الناهد المبلول من وراء سفرة الجلابيّة.

حلف الفرماوي الكبير على ابنه أن يعزل في ليلتها وأن يزوِّجه في جمعتها، وزوَّجه فعلاً قريبتهم التي كانت تسكن جاري، حدا بيت عم أندراوس المجبّراتي. بنت راجل غلبان على قدّ حاله.

قال صاحبي:

- كنت أراها في سكّتي للكتّاب، فستانها الكستور له صدر ضيِّق بسفرة عالية ترفع نهديها وتكوّمهما في كرة لحم متراكبة واحدة فوق خطّ الخياطة غير المتقنة، وهي تدعك الحلل بالرمل الناشف وتصبّ عليها قليلاً من ماء الطلمبة، من كوز صفيح أسود. لم أستطع قط أن أتبيّن شكل الوشم الأخضر الذي على رسغها اليمين.

بعد صلاة الجمعة ٢٨ ديسمبر ١٩٩٠ تضرَّعت مصر كلّها إلى المولى عزَّ وجلَّ كي ينزل الأمطار بعد طول جفاف، أقيمت صلاة الاستسقاء لكي يعمَّ الغيث ويروي الأرض العطشانة، ويوم الأحد ٣٠ أقيمت القدّاسات في كنائس مصر.

كان الشيخ عبد المسيح الفرماوي يدعو الله بصوته الرخيم، الأخنّ، الأجشّ قليلاً، وجنبات صحن الكنيسة تحت القبّة الأثريّة تردِّد أصداء الصنوج وطرقات رنين النحاس سبّحوا الربّ، سبّحوه، ارقصوا أمام الناووس المقدّس، سبّحوا مجده في الأرض والسماء.

قصر الكلام، قال لي صاحبي، راح سيدنا، مولانا، مصر. أين كان سيروح؟ التحق بالمعهد العتيق، واشتغل على نحو اللغة العتيقة،

وفقهها، مثل المئات، والآلاف ممن لقنوا فقهها في البلد العتيق.

لكن صاحبنا كان يحبّ الشعر أيضاً، أي والله، ألم تكد جارته أُمّ بلّاص تفتنه؟، الشعر العمودي الأصلي طبعاً، لغاية شوقي، وقف عنده ولم يتزحزح، ونظمه أيضاً، مثل كلّ الشباب الطموح، مقلّداً بعناية ومن غير موهبة أصلاً، نظمه على النمط العمودي الأصلي، مدح الملك فاروق أوّلاً، وسدّته السنيّة، وطلعته البهيّة، ثمّ مدح ثورة يوليو، ثورة كاللهب، تبّ الطغاة والطاغوت فاروق تبّ.

هل كان يومها - وصاحبي يحكي لي - ٢٧ يوليو ١٩٨٧ حين قرأت في «العرب» التي تصدر في لندن ما كتبه المراسل الذي لم يفصح عن اسمه، فهل هذه حكاية صحيحة أم للإثارة الصحفيّة فقط:

«هل تذكرون الدكتور نظمي لوقا؟ أوّل قبطي مصري يكتب ثلاثة كتب عن الإسلام، هي محمّد الرسالة والرسول، والمحمّداه، أبو بكر حواريّ محمد.

الدكتور نظمي لوقا مات أخيراً في صمت. صحف الحكومة والمعارضة المصريّة معاً لم تهتمّ أبداً (هكذا) بخبر وفاته ورحيله (هكذا) خاصّة وأنّ الرجل له نتاج أدبيّ جيدّ منه: المحترق بين الشكّ واليقين، وروايته: رقيق الأرض. لكن أغرب ما في قصّة رحيل نظمي لوقا أنّه عند الذهاب بجثمانه إلى إحدى كنائس مصر من أجل الصلاة عليه قبل دفنه، قيل لأهله إنّ هناك تعليمات كنسيّة عليا بعدم الصلاة عليه في أيّ كنيسة مصريّة دون إبداء أي أسباب.

وهكذا دفن نظمي لوقا دون الصلاة عليه».

حكى لي توفيق، على التليفون، عن لَدَدِ عائلته وهي تدوخ بحثاً

عن كنيسة يرضى القسيس فيها أن يصلّي على الميّت، ثمَّ بحثاً عن مقبرة يدفن فيها، من غير صلاة، فهل رضي أحد في الآخر أن يصلّي عليه؟ وهل دفن في الآخر تحت التراب غير المكّرس الذي يواري المنتحرين وغير المعمدّين والمطرودين من النعمة؟

هل كانت تلك بقايا دموع؟

كنّا نسكن جنب بيت عم أندراوس المجبّراتي العجوز ذائع الصيت الذي كانوا يطلبونه، بالاسم، من كلّ القرى والنجوع، والمركز، وحتّى من مصر، ورث الصنعة أباً عن جدّ من القدماء القدماء، وليس أخفّ منه يداً ولا أبرع صنعة في لمّ العظام المكسورة، مات الآن يرحمه بقى ويقدّس روحه، كما تقولون، لم يخلّف ولداً ولا صبيّاً يحذق المهنة، راحت عليهم الأيّام.

قال صاحبي - ألا يقول كلّ الصِحاب، في كلّ القصص، عندما لا يريد صاحب الحكاية أن يقول بنفسه، فيتخفّى وراء صاحب موهوم؟ لم يكن صاحبي موهوماً، كان جسيماً - قبل أن يهدّه السكّر - وذلق اللسان وله شهرة أيضاً وطول باع في شغلته. ولم يكن صاحباً ولا صديقاً، على الحقيقة، بل كان فقط زميل رحلة.

من غير ما أطوّل عليك - قال - ربّنا فتح عليه وجرت الفلوس بين يديه، فبنى لنفسه في آخر الدنيا ملجأً وملاذاً يأوي إليه، ليستجمّ ويذكر الربّ ويستروح ويتفكّر في كون الله وعجائب خليقته، ويمارس عملاً غريباً وسرّياً.

بناه على جبل قفر موحش يطلّ مباشرة على البحر الأحمر، بين

الغردقة وسفاجة، كان كما يقولون، بيته الآخر، لعلّه بيته الحقيقيّ. بيت الشمس.

قصر غريب، ربّما كان صغيراً بعض الشيء، من الحجر الأبيض المضلّع، والقرميد الأحمر على سطوح مثلّثة الشكل، وجدرانه مبطّنة بالخشب الجوز الفاخر، وله أبراج أربعة، عالية ورفيعة، مثل مآذن على الطراز الاسلامبولي، نوافذ، ضيّقة مستطيلة عليها زجاج ملوّن معشّق.

مبنيّ على سِيف الصخر، عالياً، في قلب الجبل متشبّثاً بشعابه، جداره الشرقي يطلّ على البحر مباشرة، من علوّه الشاهق، الأمواج المزبدة تبدو صغيرة جدّاً وبطيئة وذاهبة في عرض الأفق إلى ما لانهاية.

ولا وصول إليه إلّا عن طريق دائري صاعد من الناحية الأخرى، ضيّق ومدكوك بالحجر لا يتّسع إلا لسيّارة واحدة، مشقوق بين الصخر تكاد تطبق عليه أضلاع الحجر المهدّدة.

قلت: مَنْ هو؟ لا يمكن أن يكون هو؟

قال: أحكي عن آخرَ، بالتأكيد. تلك حكاية أخرى.

قال إنّهم يقولون إنّ غرفة نومه، في الجانب الشرقي البحري، هي الوحيدة التي لها نافذة بسعة الغرفة كلّها، واجهة زجاجيّة واحدة عريضة من الحائط للحائط، زجاجها مدخّن، سميك، تحوم عليه عقبان البحر الأحمر الشامخة ممدودة الأجنحة على آخرها، ثابتة، تحلّق، تقترب منه جدّاً حتّى لتكاد ترتطم به، ثمّ تعود تصعد إلى أجواز السماء كأنّها مرميٌّ بها إلى أعلى مثل قذيفة مدفع صامتة.

كانت أمواج البحر تضرب، تحت الجبل، تحت جدران السراية، ظلالها وفضّتها تنعكس في المرآة الخضراء الداكنة، غائرة، ذاهبة إلى أسفل، صخر الجبل وجدار السراية وأبراجها المستدقّة الأطراف تنزل حتّى السماء السفليّة المقلوبة ونصف القمر الذي يترقرق به الماء في عمق سحيق، بين الغيوم الواقفة السوداء.

باب السراي الخشبي الضخم منعكس في غور الماء الساجي، في حضن الجبل، منحوتاً بنقوش دائريّة هندسيّة في وسطها «عنخ» بارز مربّع الأضلاع وحول أطرافه استدارات كأجسام الزهور، كلّها محدّدة دقيقة المعالم، تحت، في الماء الهادئ غير المسبور.

المهمّ، قال، إنّهم يقولون. هذه كلّها أقاويل.

فلقة الصدفة الهائلة، فضيّة اللون، مثل تلك التي انشقّت عن أفروديت من زبد البحر، تطفو على ثَبَج البحر الأحمر في ليالي تمام البدر.

تسحبها ستّة من أسماك القرش البيضاء الكبيرة، ظهورها تعلو وتهبط في قلب الماء المشعّ بزرقة بيضاء خفيفة الزبد.

وقيل لا ليست أسماك القرش بل هي جنّيات البحر العاريات يضربن الموج بأردافهنّ اللحيمة البيضاء التي تنتهي إلى ذيل ذي زعانف كبيرة مكسوّ بالفلوس البرّاقة المدوّرة العريضة.

قال: المعروف شرعاً أنّ أمّة الجنّ من مخلوقات الله وأنّ منهم الطيّب والخبيث وأنّهم مكلّفون كالإنس، والله وحده هو الذي يعلم أماكنهم على التحديد.

في جوف فلقة الصدفة الهائلة تربض، كأنّها خائفة، هذه القامة النحيلة الطويلة، مائلة للسواد، عظامها جافّة، بالجلاّبية الرقيقة البيضاء على اللحم، والطاقيّة المدوّرة الرفيعة، أشعّة البدر تنعكس على شعيرات اللحية البيضاء القليلة.

القصد، قال لي صاحبي، آجي بالحكاية من الآخر. راح سيدنا للخليج وللشام، عدّة مرّات، أين كان سيروح مثلاً؟ وبين كلّ إعارة وأخرى راح يعلّم فقه اللغة العتيقة وآدابها، في صقلية، وبلاد شطوط المتوسّط، لم قرشين كويّسين يعني، وربّنا فتح عليه كمان وكمان، عرف السكّة للصحافة أوّلاً، ثمّ للإذاعة مرّة، قل مرّتين، لا أكثر.

ثمّ أصبحت الساحة البيضاء الصغيرة - أو الملوّنة - ساحة انطلاقته وتفجّره، مواهبه لا يملكها أبرع بهلوان على حبال الصوت والحركة. يتربّع على الشلتة العالية تحت العَمود، ويهتزّ ذات اليمين وذات اليسار، كان أداؤه ممتزجاً بجسمه الذي يهبّ به موجٌ غير مرئيّ ويسجو ملتبساً بروحه المعذّبة المنسكبة بالآيات والمقادس وأحاديث المغازي ونُذُر الأبوكاليبس والمزامير ومثول الخطيئة والفداء والخلاص والصلوات المحفوظة عبر الدهور، والسخْر والتنديد بالجاحدين والكافرين؛ وكانوا على المقاعد الخشبيّة التي نعّمها جلوس القانتين أجيالاً وراء أجيال؛ ثريّات الكريستال ترمي ضوءاً مُعشياً على الأيقونات القديمة التي تلمع عجينتها الترابيّة من القِدم فلا تكاد ترى الشخوص وراءها تحت ترسّبات السنين، على المنمنمات والمقرنصات والمثمّنات ورقش الفسيفساء باسم الجلالة والنبيّين والحواريّين الاثني عشر. وهو يعلّم ويعظ ويسأل ويجيب بنفسه على سؤاله ويعد ويتوعّد

ويلقّن ويستنفر ويستفزّ ويكبس سامعيه المسحورين ثمّ يهزّهم يوقظهم من بهرة التنغيم وترقيص الأسماع ثمّ يهدهدهم مرّة ثانية فيهتفون «ألـلاااااه!» يشوّر بيديه ويخبط على فخذه، يخشوشن صوته ويعلو ويجلجل وهو يبرّق عينيه ثمّ يهبط إلى ترجيع أخنّ مهموس، وهو مسبل الجفنين في خشوع، ويرفع ذراعيه بالدعاء، كأنّه يناجي آتون.

أثرى وأصبح مولى الملايين وموئلهم وطبعت له الكتب عن السحر والجنّ والشياطين والرقى وسِيَر الشهداء ومعجزات البطاركة والقدّيسين والتَطَيُّب والتطبيب بالأعشاب وعاش في فيلّلا بالقاهرة من أموال مليونير هارب وعندما سافر للعلاج في أمريكا نزل من الطائرة بالبرنيطة والجاكتّة والبنطلون، وكأنّما كان حليقاً ليس في جسمه ولا رأسه شعرة واحدة وعلى كتفه جلد الفهد المقدّس.

يصغون مأخوذين إلى نبرات الشجن والتضرُّع المرفوع ـ كالبخور ـ تحت القبّة السامقة التي تكاد تختفي من فوق نور الثريّات والشموع المبثوثة في الأركان على الأعمدة وجدران الصرح المنيف. وهو يشوّح بكمّ فرجيّته الحرير السوداء تنحسر عن ذراعين ضاويتين، كأنّه يرمي عليهم تعزيمة سحر: أيّها الربّ ابسط حمايتك علينا، قِنا عذاب سَقَر، ارحمنا يا سيّد، بشفاعة قدّيسيك وأوليائك الصالحين، بحقّ المشاعل الأربعة المتّقدة على أطراف المركب السابح على بحر طغمات السنين بحقّ عين الشمس في كبد السماء حتّى يسري عصير الروح من جسد رع إلى جسد حور بحقّ القرص الأبديّ بحقّ القلب غير المائت الذي جحد الشرّ بحقّ العين التي إن أخطأت حقّ سَمْلُها بحقّ الذراعين المطروحتين للدينونة، المتضرّعتين، النابعتين من كَرَتَيْ الصدر الناهض

تملؤه أنفاس لا تخبو أبد الدهر بحقّ القرد والضبع وابن آوى، والأسد واللبؤة مقترنيْـن بلا انفصال لحظة واحدة ولا طرفة عين بحقّ مـلائكة الأرض عقربائيل وجرمهيابيل وطلقطبابيل وشلهميابيـل بحقّ ملائكـة السماء ميخائيل وجبرائيل ورافائيل واسرافيل وكـلّ المرنّمـين بحمد الله بموسيقى الأفلاك الدوّارة إلى أبد الآبدين.

وقال صاحبي الذي ليس مزعوماً ولا موهوماً إن غرفـة نومـه المطلّة واجهتها الزجاجة الفسيحة على البحر مباشرة، من عـلٍ، فيها سريـر عـريض واطئ خشبـه عـارٍ من أيّ فـرش، ينـزل في فجـوة بـأرض الغـرفة، بـالضغط على زنـبرك حديـدي قويّ مثبت في قـاع السريـر، ينخفض قليلاً قليلاً بفعل ذراع مستترة، حتّى يصل إلى مستوى أرض الغرفة، ويغوص فيها قدر نصف ذراع، فيبدو سطحه الخشبيّ الخام، خشناً وغريباً في قلب السجّاد الأصفهانيّ الوثـير. الشمس أتون تصبّ فيها ضوءها القوي.

كنّ يـأتـين إليـه، بمـواعيـد سـابقـة ومحـدّدة، سيّـدات من بقـايـا الارستقراطيّة الملكيّة البائـدة، رشيقات، جـافّات القـدود، منتصبات القـامات، وزوجـات وعشيقات المليـونيرات والمليـارديـرات الجـدد، مربربات مليئات باللحم المحبوك وبنضارة الصبا ومثقلات، في أناقة، بالذهب، الأساور حول المعاصم والعقود حـول الأعناق والخـلاخيل - حتّى - حول السيقان أحياناً.

زيارات سريّة، ومحسوبة.
ليس له. لأنّ غوايته ليست في النساء.
بل للاعتراف، والكفّارة.

يبكين.

هل كنّ يبكين بالدُرّ على الخدّ الأسيل المُعَدّ جيّداً بالپانكيك والماكياج، يعضضن على العُنّاب بالبَرَد؟

يقلن إنّهنّ أخطأن، ويعترفن. ولكنّه لا يكتفي بل يطلب منهنّ أن يقلنها صراحة: إنّهنّ زانيات.

ويستمع، بشَرَهٍ وصمتٍ ولكن بإصرار، إلى كلّ التفاصيل، ويسأل، ويقتضي إجابة سافرة: كيف كنّ في الفراش، وكيف كان رجالهن، كم مرّة، وبأيّة طريقة، وكيف كان التمهيد، والتبويس، والتحسيس، والدخول، وأساليب العناق من الأمام أم من دُبُر، هل كنّ نائمات أم راكعات؟

في يده كأس النبيذ الأبيض. يترشّفه كأنّه لا يدري ماذا يفعل.

ثمّ يأمرهنّ بخلع ملابسهنّ كلّها، أمامه، قطعة قطعة، فيما عدا الحلى الذهبيّة يحتفظن بالحلقان والأساور والعقود على الصدور العارية المترجرجة، والخلاخيل في السيقان. ويأمرهنّ بصوت أخنّ أجشّ، أن تلبس الواحدة منهنّ قناعاً أسود كاملاً يخفي وجهها وشعرها تماماً. يتمدّدن على السرير الخشبي الجافّ على بطونهنّ، يعطينه الظهر المدملج والردفين العاليين، خصل الشعر والوجه النسوي قد اختفت الآن تماماً، لم يبق إلاّ الجسم الغلماني.

ويوقع العقاب ويستأدي الكفّارة، على طريقته.

يخفق الجسم الممدّد بالدرّة، بينما السرير ينزل ببطء له صرير.

السوط الرفيع، بلسان واحد، يئزّ في الهواء، من غير عنف،

ويسقط على الجسم الملقى باستـــلام، الذي هبط الآن تحت مستوى الأرض، لم يبق واضحاً وناتئاً منه إلاّ الأرداف، مرّة أو مرّتين، أو ثلاثاً على الأكثر.

الندبة الطويلة تتورّم على الفور في خطٍّ متعرّج طويل على الربوتين المرتفعتين ووهدة الظهر.

في حالات قليلة ـ قال صاحبي ـ كان له ختم دقيق بارز، عليه نقش منمنم غير مفهوم القسمات، يحمّيه بالنار على جمرة صغيرة يمسكها من سلسلة طويلة، حتى يحمرّ النقش ويتوهّج، ويمسّ به الردف الشمال ـ دائماً الشمال ـ بسرعة وبراعة ونظافة، اللحم الناعم المحترق يطشّ، تصعد له رائحة شياط خفيفة، مذاق أوّل من نار جهنّم، ثمّ يطهّره على الفور بمعجون أحمر خاص، يزول الألم لتوّه، ويظلّ النقش محفوراً لا يمحى.

ذلك أنّ النار لا تحرق أحياناً.

ألم يأتك حديث المرأة التي ألقت بنفسها في التنّور، من فرط مواجيدها، ولم تحترق؟

بعد لذعة السوط، أو طشّة الحرق، جسمه النحيل يرتعد، مرّة، مرّتين في جلاّبيته البيضاء الرقيقة ـ توشك أن تكون شفّافة ـ رعدة اللذّة القهريّة العنيدة، كأنّها دائماً مفاجئة.

ذلك كلّه لم يحدث.

قال بصوت جهير، ثمّ مهموس مضروب:

«في يوم الثلاثاء من كلّ أسبوع، وفي المنطقة المحيطة بمسجد أبو

السعود بمصر القديمة تتكرّر مأساة أخلاقيّة ومهازل تتستّر في الدين والدين منها بريء منذ الصباح وحتّى غروب الشمس ترى جموع النسوة وقد التففن في حلقات الزار يتمايلن مترنّحات كاشفات عمّا حرّم الله رؤيته من أجسادهنّ، ناحرات الذبائح للعفاريت والجان بأمر من شياطينهنّ مخالفات لأمر الله من أنّ تلك الذبائح تدخل ضمن ما أُهِّل به لغير الله.. وإشاعات تروّج عن بركة مياه بئر تقع داخل المسجد وكيف أنّها تداوي المرضى وتشفي العليل.

انظروا ما آل إليه حالنا».

اقتراحٌ بمشروع قانون لمجلس الشعب ينصّ على أن تلتزم الفتيات والسيِّدات العاملات بالجهاز الإداري بالدولة والقطاع العام ومعاهد ومدارس التعليم في مختلف مراحله ومستوياته بارتداء زيٍّ يتوفّر فيه ما يلي: ألّا يكون كاشفاً لما يجب ستره، ألّا يصِف، ألّا يشفّ، على أن تنظِّم كلّ جهة نوع القماش واللون المناسب لطبيعة العمل بها، وعلى أن يصدر الوزراء ورؤساء الجامعات والمعاهد، كلٌّ فيما يخصّه، القرارات اللازمة لتنفيذ هذا القانون، وتعاقَب كلّ مخالفة لأحكام هذاالقانون بالحرمان من الترقية الماديّة أو الأدبيّة.

مبروك علينا. سبع بركات..!

في أرض الحوش الرمليّة المتحدِّرة قليلاً الواسعة على هضبة من الجبل، أسراب النعام تتواثب وتظلع بأعناقها ومناقيرها الممدودة، كانت له ـ مازال صاحبي يقول، وقد أوشك أن يفرغ من حكايته ـ هوايةٌ غير مألوفة، أن يحرم النعام من الطعام أيّاماً، ثمّ يأتي بالمسجّل الجروندنج الضخم، وله سمّاعات قوّة ٥٠٠ واط، تقرع الموسيقى

بغتة، تصدر عن المسجّل أعلى الأصوات وأضخمها وأكثرها عنفاً، تخبّط الطبول ويدوّي النفير، يجري النعام جيئة وذهاباً، فزِعاً، يتصادم، تتلاطم أعناقه وتتشابك في صرع المفاجأة، يرفرف بأجنحة قاصرة لا تقدر على التحليق، يسقط بعض الطيور صريعاً.

هذه حكاية سيدنا، مولانا، صاحبنا. حكايته، حكايتها، حكايتهم، حكايتنا كلّنا. هل هي حقّاً حكايته، أم من افتراع صاحبي الموهوم؟

قال: حلوة وإلاّ ملتوتة..؟

قلت: عليك غنوة.

وغنّيت أنا، كأنّني مرغم، أغنيتي المكرورة المملّة.

الجَمَد الهشّ البلّوري على القلب. مازال النهر الأسود يموج في العمق، تحت لمعة الثلج.

صروح العسف صروح الأحلام المجهضة تتفكّك وتنهار وما تفتأ تقوم هنا أو هناك على السواء أو على الاختلاف.

أبراج هشّة الأركان ومرهوبة ومتجدّدة عبر الحقب والدهور.

هل تسقط الصروح؟ ومتى؟

أمواج الجسد المظلمة، بحيرات الروح المهتاجة

جريحاً على صخور الجبل، مصلوباً على شعابه.

مضروباً في الصميم، ضربةً لا برء منها،

ضربة الحبّ التي لا برء منها.

والشهوة.

شهوات العقل شهوات الروح لا ريّ لها، هي القاتلة.

اليقظة في المعتقل

وكأنما تيقظت صباحاً في معتقل صحراوي.

أجد نفسي في العنبر، وحدي. تركني كل الناس.

إلى جانبي بدلتي معلقة بمسمار على الحائط، تهتزّ. وعلى صندوق خشبي مقلوب أشيائي اليومية فقط: فرشاة الأسنان والمعجون، عدة الحلاقة، وكتاب شعر انجليزي.

العنبر واسع وخاو، ليس فيه إلا سريري الحديدي الضيّق وعليه المرتبة القش الهابطة في منتصفها. اصطدام قدمي بالبلاط له صدى.

أفهم، بشكل ما، أن زملائي - من بقي منهم في المعتقل - مازالوا هنا، في مكان ما. ولكني أحس مع ذلك أنهم ليسوا هناك.

كنت بالليل - في الحلم ربما؟ - قد أحسست أنني وحدي الآن، تماماً. وأعرف مع ذلك أن هناك حضوراً آخر. هل هي ذئاب، ضباع، كلاب الصحراء؟ أسمع صوت خطاهم المسترقة، أشم رائحة الحيوانات البرية، قوية ونفاذة، أنفاس هذه الحضور الفاهمة غير العاقلة، كأنها عليّ، في ظلمة غير كاملة.

استيقظت الآن تماماً، وقمت.

كل شيء مهجور وخاو. لا حرس. لا أحد. الصحراء فقط.

الباب الحديدي في وسط سور السلك الشائك معووج وموارب قليلاً.

قلت: إذن فقد خرجوا، كلهم، وتركوني؟

أجد نفسي دون عائق، في الخارج. في الصحراء.

كانت الرحلة في مراكب الليل شاقة.

هل انتهت الرحلة، وآن لي أن أحط الرحال؟

امرأة أعرابية، ملففة بثياب سود قديمة، فضفاضة وثقيلة، حالت خضرتها المطرزة، تقف على جنب، على غير مبعدة من المعتقل المهجور، تدعو لي: ربنا يعمر بيتك، ربنا ينوّر لك طريقك.

ينوّر لي؟

في نور هذا الصباح الباهر، الموحش؟

أصل إلى الطريق الصحراوي، والعمال يشتغلون في نصف الطريق بالطول، النصف الثاني شكله سخن وطريّ، والإسفلت فيه لامع السواد، ومعدات الرصف واقفة، ضخمة الهياكل، حديدية الأذرع والبطون.

أراهم مشغولين عني، كلهم، لا أحد يراني.

أحس أنني هارب، خرجت، هكذا، دون تصريح، دون أمر إفراج. مازلت سجيناً وليس حولي إلا امتدادات الرمال، بلا نهاية، على الجانبين.

صحاري الوصال خاوية، فكم بالحري بِيدُ البعاد.

جاء الأوتوبيس، على نصف الطريق المسفلت القديم. هل مكتوب عليه بخط رديء لا يكاد يقرأ: الطور السويس؟

لونه الأخضر الباهت صدئ: تساقط طلاؤه في بقع غير منتظمة بَانَ فيها الصفيح المغضّن المتقبّض. الأوتوبيس متهالك ولكنه شغّال، والمحرك له أزيز قوي. عنيد.

عبء على كتفي أنا وحدي، حريتي، فرحتها المكبوتة في قلبي لا يعرفها أحد.

لا مبالاة الناس. والأشياء. والعالم.

عندما صعدت إلى الأوتوبيس تحت نظرات الركّاب التي لا معنى لها، بدْو ملففين بالأبيض المصفرّ، وجنود، واثنين ثلاثة أفندية، رثاثتهم تتأكد في سطوع الصبح، وفي يدي شنطتي الجلد الاصطناعي القديمة، مطبّقة، لاحظت لأول مرة أن جزمتي بوزها مفتوح، وأن نظارتي مكسورة الإطار، مربوطة بسلك.

عندئذ تيقظت.

لذعة الخجل العتيق نفسها.

مهما كنت متحرراً، وثورياً حتى.

أداري شرابي المقطوع بأن أدسه في حذائي، وأنا أطلع الطريق الطويل الصاعد إلى ربوة المدرسة العباسية الثانوية في محرم بك. أتلفت خلفي، هل أفلت الشراب من ظهر الجزمة، وظَهَر الفتق الفاغر عن الكعب العاري؟ ونحن، تلاميذ سنة ثالثة ثانوي، بدوي وجورج وحسن، نتحدث عن اجتياح قوات هتلر سهول أوروبا، عن

هزيمة دنكرك، عن الطيران النازي الذي لا يقهر، وأقول في حماسة لا انطفاء لها أبداً: لن تنتصر الفاشية، هذه طبيعة الأشياء.

يا لإيمان الصبا الفاخر!

في ٢٦ فبراير ١٩٠٧ اجتمع مجلس النظار في الساعة الثالثة بعد الظهر في سراي عابدين العامرة تحت رئاسة الجناب العالي الخديوي. ووافق على ما يأتي:

أولاً: تعيين فتحي بك زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية الأهلية وكيلاً لنظارة الحقانية.

ثانياً: تعيين المستر دنلوب مستشار نظارة المعارف العمومية رئيساً للجنة العلمية الإدارية، وتخويل سعادة ناظر المعارف سعد زغلول باشا تعيين من يقوم مقامة أثناء غيابه.

ثالثاً: تعيين كل من أصحاب العزة عبد الخالق ثروت بك مديراً للإدارة القضائية للمحاكم الأهلية بنظارة الحقانية وأمين بك علي رئيس محكمة الاسكندرية الأهلية وأحمد ذو الفقار بك بمحكمة المنصورة المختلطة مستشارين في محكمة الاستئناف الأهلية.

وقالت «المصري» مع أنباء اغتيال النقراشي باشا على أيدي الإخوان المسلمين، في ٢٩ ديسمبر ١٩٤٨، إن وقف المرحوم السيد محمد شريف باشا الكبير ١٥٢ شارع محمد علي بمصر تليفون ٥٩٥١٥ يشهر مزاد بيع القطعة ٤١ بتقسيمه بمنيل الروضة ومساحتها ٦٣٩ م بسعر المتر ٣ جـ فلراغب الشراء المعاينة والحضور لمحكمة مصر

الشرعية بجلسة ١٦ يناير ١٩٤٩ ومعه التأمين وسألت أين تذهب هذا المساء؟ وأجابت بأن الفرقة المصرية بدار الأوبرا الملكية اليوم عطلة وأن شكوكو وفرقته بمسرح الأزبكية ت ٥٦٣٤٠ سامية ـ كارم وفرقة بديعة وببا كازينو بديعة استعراض أبو طرطور ألحان موسيقى وحلمية بالاس ت ٦٢٠١٧ استعراضات ـ زوزو كوكا وسراج منير في إيزيس لص بغداد بالألوان الطبيعية وناطق باللغة العربية.

هل كنت يومها في معتقل أبو قير؟

لم نكن قد رُحِّلنا بعد إلى الطور.

ولم أكن قد استيقظت لأجد نفسي في حلم المعتقل المهجور والصحراء التي يشقها طريق مثل طريق العباسية الثانوية، أو الطريق الصحراوي الذي كنت أشتغل فيه مع خالي ناتان، جنب الرست هاوس.

ولا على كوابيس اليقظة التي تستغرق، كل يوم، أبداً من الزمن، وهو مازال على حافة النوم حافة الموت عندما يجتاحه رعب أن الحياة قد انقضت، من غير جدوى، ومن غير معنى، الجهاد الحسن والاستبسال أياً كانت حماقته ـ أو نبالته ربما؟ ـ والرمي بالنفس في وجه الاستعداد للاستشهاد من أجل أشياء أياً كان تهافتها وسخفها ـ أو سموها ربما، وسحرها على كل حال ـ والخيبات، والجبانات، والخذلان، والصمت، والتقاعس، والقسوات، والكدح المتصل من أجل الحب، والرزق، وشهوات الروح. انقضت، ولّت، انحسرت، ولم تبق أمامه إلا أيام المرض والعجز والألم، الهواجس الموصوفة في الكتب، والوساوس المأثورة وطأتها ليست أقل لأنها

مكتوبة ومعروفة، وصور النهايات المحتملة والمتخيّلة المضروبة قدراً أو المضروب ميعادها بعمد وإرادة في فعل نهائي مرتب ومقصود ومعد بعناية، أسوف يأتي في الظلمة غير الكاملة؟

فيقوم منتفضاً، يوقظ معه الموسيقى الكامنة، ويتلهّى بطقوس الصباح، دون تلهية، يا فتّاح يا عليم، اصطبحنا واصطبح الملك لله! أم هو الطريق الترابيّ الضيّق بين دكان عمّ شنودة البقّال في الطرانة والسور الطويل المبنيّ من الطوب اللبِن، مازلت أقطعه؟

باب دكّان عمّ شنودة قد صغر وضاق، أصبح كوّة لا أعرف كيف يمكن أن يخرج منها أحد. السور مازال طويلاً طويلاً لا آخر له، سور بيت الشيخ علوان الحائط السدّ في الطرانة، سور الجبّانة في الشاطبي سور سينما ماجستيك المحترقة سور الجنينة القبليّة في الصعيد حيث قتلت هنيّة سور الروح المحاصِر المحيق، وكأنّني أظلّ أذرع هذا الطريق، تحت هذا السور، بلا وصول.

قالت له إنّ فرانسيس بيكون قد مات قال ألم تلحظي قطّ تأثير جوجان الوحشي عليه؟ قال كان ذئباً مستوحشاً والعالم عنده دغل متفجّر شائه قالت ألم يكن يعشق الغلمان أو يعشقونه؟ قال ولم يكن يسقط كأس الشمبانيا من يده أو لا يكاد، قالت تشكيلاته تشويهات قال موّارة بالحمم الجسدانيّة الحارّة ألم تكن المسوخ أمشاجاً وأبضاعاً تنزّ وتنزو بدم اللون؟ وتستصرخ بلا مجيب؟ قال إنّ الحوشيّة عندهم في أدغال الألوان والأهواء، فنونٌ وشجون.

قالت إنّ صديقه بشاي أبسخيرون حوشيّ المنازع في الرسم وفي الشبق سواء.

قالت له عندئذ فقط أنت الحوشيّ المؤدَّب، وأمّا هو فقد كان لجوجاً وملحاحاً وهو يعرض عليّ أهواءه «الحوشيّة» - كما تقول أنت الآن - قالت كنت أصدّه برفق مرّة ومرّتين ثمّ بحسم حتّى ارعوى!، قال لها مرّة في سان فرانسيسكو قضى ليلة مع مومس غالية الثمن في غرفته، وسكر، ولمّا استيقظ وجد نفسه عاريا تقريباً، بالفانلّة واللباس، ووجد غرفته أيضاً شبه عارية، اختفت لوحاته وكتبه، هذا ما أحزنه حقّاً، للحظة. واضحٌ أنّها كانت شرموطة مثقّفة أيضاً إلى جانب أنّها لصّة، فقد ذهب معطفه الفرو الفاحش الثمن، وسلسلة ذهبية ١٨ قيراط غليظة وثقيلة كانت تسقط من عنقه حتّى بطنه، وكلّ ما في محفظته من أوراق النقد الأمريكيّة والفرنسيّة وأخذت أيضًا جواز السفر ورخصة السيّارة التي كان قد تركها في باريس وبطاقة الائتمان الخاصّة التي لا تنفع أحداً غيره، أعلى سبيل انتقام ما؟ لكنّه - بطبعه - لم يبالِ كثيرًا، أو قليلاً، ترك الأمور كما يتركها دائماً تجري في أعنّتها، فلعلّه كان قد نسي رقصته تلك معك، وأنا أهشّم بيديّ العصبيّتين أضغاث الورد القديم، كما نسي يقظته تلك في غرفة سان فرانسيسكو، في العراء.

قال لها ألم تفتحي له، ليلتها، ثغرة نور خضراء في قلب انصباب السديم الأصهب الأرمد الكابي؟ ألم تكن أصابعك تدغدغ الشعر الكثيف في مؤخّرة رأسه المحنيّ عليك بلهفة وأنتما ترقصان؟

أتلك عادة من عادات الرقص عندك؟ في تلك الليلة الأولى كنت

تفعلين ذلك نفسه مع الفلسطينيّ، في شرفة من بيت موسكوفيّ عربيّ التصقت به، وعبثت بالشعر في مؤخّرة عنقه وأنت ترفعين إليه عينيك الواسعتين الضارعتين. ولدهشتي، ومفاجأتي قذفت أنا، كأنّني تقمّصته. ونمتِ معه، كي تقولي لي على سبيل المفارقة إنّك تحبّينني أنا.

ليلة أن كدت أموت، فيزيقياً، وأنا أقذف بأحشائي وبالعالم كلّه معاً، تحت الدوش، هواناً ورفضاً. وبعد نصف نومة تنفضها رجفات الألم المتّصل جئت تودّعينني فجراً، وتيقّظت على رسالة منك لم أتحقّق منها، حتّى الآن، رغم المواثيق والمحبّات.

كنت أسحق بين أصابعي أوراق وردتك الناعمة المخمليّة، رطبة بالندى السخن حرّيف الرائحة.

لماذا جروح العشق لا تندمل أبدا؟

صعب ترويض الذئاب، وثمرة الفن - والعشق - يستحيل كبحها وإن كان جموحها قاتلاً. عطور الحريم لا تهدهد من غلوائها، ولا قطر الياسمين والميموزا واللوتس، ولا عجينة عنبر كشمير الداكنة لزوجتها المتماسكة وبرودة ملمسها عليه إذ تدلّكه بها وهو نائم مرتخٍ شبعان بعد سورة الهجوم. مسكة حنانة وحاسمة ومتوترة ومحنّكة فيتنبّه ويشتدّ وتتدفّق فيه من جديد دماء العشق والفن وقد خزلت منها تدويرات أعضائها وطيّات أثدائها وتنزّيات أطرافها وعكنات بطنها حقاق طريّة مليئة بدهن اللبان المياه الذهبيّة اللبنيّة تنبجس فجأة لها دويّ طبل العالم قرع الصنوج في الخواء الممتدّ بلا نهاية.

تلك يقظة.

واليقظة الأخرى الأنيسة فى صباحات هادئة ووديعة على أصوات الشارع الصغيرة: تنفيض المرتبة في بلكونة مجاورة صوت الراديو وحوار عائلي صباحيّ يصل بعيداً غير مستبين المعالم أصوات أليفة ليس فيها اقتحام بل تبطّن الصباح بحشو رقيق الجسم دردشة الجيران من الشبابيك وعبر البلكونات تأتي من غير وضوح تخبو وترتفع فجأة وعنها يا ستّي إدّيته كلمتين في عضمه هوّ انا حاسكت له برضو، فشر وغلاوة ولادك بلاش وغلاوة ولادى ويروح الحوار في تضاعيف نداءات البيّاعين من تحت بيكيا روبابيكيا المدمّس لوووز جمبري عنبر جمبري بنّور البصل البصل الجديد بساريا لوف الحمّام صوت احتكاك المكنسة القشّ بالبلاط وسقوط قطرات منتظمة لها إيقاع رقيق من حنفيّة الحوض في المطبخ كلّك عسل يا توت أهرام مصري الاثنين والدنيا اقرا فكري أباظة احتكاك عجلات ترام الرمل بالقضبان وصلصلة جرسه البهيجة وترداد هديده بين الحيطان حسّ الملاءة النظيفة واللحاف غير ثقيل ومطمئن حسّ جسمه بينهما وتماس فخذيه وتوتّر ما بينهما في غير تطلّب لشيء ما الآن وحتّى عند صعود صوت ملتاع من الشارع إلهي يهدّك يا شيخ بحقّ سيدي العبّاس المرسي لأحسن دا حرام عليك حرام والنبي بقايا زقزقة العصافير المتقاطرة القليلة الآن في قلب أوراق الشجر الملتفّة تخترق هذا الصبح العالي بطعناتها الحادّة ربّنا ع الظالم روح يا شيخ ربّنا ع المفتري خفوت الدعوة اللاعجة فيها قبول ورضى مضمر وترك الأمر للتصاريف غير المحسوبة وانبثاقات قصيرة لنفير السيّارات العابرة القليلة وأغنية علي

محمود طه المهندس من الراديو كليوباترا أيّ حلم من ليـاليك الحسـان ينادي في تنغيم يبدو شجياً في هذه اليقظة بالصوت الحلو الذي آل إلى كهولة ناضجة.

بعد أربعين، خمس وأربعين سنة يكتب للأهـرام مصطفى السـمّان مقيم ٣٠ شارع السبع، امبابة، عن تلك السيِّدة التي كانت عنـدئذ، في مثل ذلك الصباح، في نحو العشرين من عمرها. أين كـانت ومن أين أتت؟ من الفـلاحين؟ هـل كانت - ذلـك الصباح، مثـلاً - تحمل البلّاص على رأسها، في قرية من قرى امبابة، تأتي بالماء من الموردة في النيل؟ وتقضي النهار في رعي الجاموسة التي تأكل الحلفا وأنواع الزرع الشيطاني على شطّ النهر الذي كان مايزال بريئاً؟ هـل كانت من وسط البلد أم من أطـرافهـا؟ هـل كـانت في بيت أبيهـا أم كـانت تخـدم في البيـوت - عندئـذ، سنة ١٩٤٧ مثـلاً - وتنزل نشيـطة ناهضـة الصدر خفيفة الخطو في جلّابيتها البلدي لتأتي لهم بملء الطبق الصاج الكبير، بتعريفة فول مدمّس؟ أم كانت تبيع الفجل والجرجـير الحزمـة بملّيمين على قفص الجريد المغطّى بخيشة مبلولة؟

«في بداية شارع ترعة السواحـل من ناحيـة المحكمة بـامبابـة كيت كـات أجد كـلّ يـوم سيِّـدة في الستّين من عمـرهـا تجلس في مفـترق الطريق العمومي وتحت عمود الكهرباء، في الـرصيف الصغير الـذي يفصل اليمين عن الشمال» (شُفْ دِقّة مصطفى محمد السمّان وحفاوتـه بالتفاصيل!)

«وتفترش بقايا حصيرة وبجوارها بقايا بـطّانيّة وصحن وقلّة وتجلس

طول النهار وفي الليل تنام وتتغطّى بالبطّانيّة ورغم أنّي تأثرت وأنا أراها تحت المطر إلاّ أنّي جلست أتعجّب...»

(أين، يا ترى، جلس مصطفى محمد السمّان يتعجّب، على الرصيف الذي يفصل.. إلخ).

«عندما رأيت كلباً يجلس بجوارها يحرسها من أقدام المشاة ومن الأولاد، وعندما سألت عنها قال لي أحد البائعين إنّ هذه السيّدة في هذا المكان منذ سنوات عديدة تنام وتستيقظ في الشارع ومعها هذا الكلب...» ٢ إبريل ١٩٨٧

تنام وتستيقظ في الشارع..

أمّا في ٣٠ يونيو من العام ١٩٨٧ نفسه فقد كتب منير المسيري، للأخبار، من مدينتي العظمى الاسكندرية القدسيّة الحوشيّة المهدرة والأبديّة أنّه قد:

«كشف بلاغ من أبٍ بالاسكندرية عن جرائم بشعة ارتكبها طبيب بمستشفى الشاطبي باسم البحث العلمي! اكتشف الأب اختفاء جثّة ابنه الوليد بالمستشفى.. وماطله المسؤولون بالمستشفى في تسليمها له.. وبعد أسبوع تسلّم الجثة بدون رأس!!

«تقدّم الأب ببلاغ إلى العميد محمد مكّاوي مأمور قسم باب شرقي..

«كشفت التحرّيات أنّ طبيبًا بالمستشفى يعمل مدرّساً مساعداً بقسم البيولوجي بكليّة طبّ أسنان الاسكندرية قام بقطع رأس الوليد لإجراء أبحاث علميّة عليها.. اعترف الطبيب في التحقيقات أنّه اعتاد قطع رؤوس الأطفال المتوفّين الذين لا أهل

لهم لإجراء الأبحاث عليها.. وأنَّ المسؤولين بالمستشفى يلقون بجثث الأطفال في حمّام المستشفى حيث يقوم هناك بقطع رؤوسهم. وقال إنَّ جثّة هذا الرضيع أُلقيت خطأً مع هؤلاء الأطفال!!

أُحيل الطبيب إلى النيابة.

وماله؟

البحث العلمي طبعاً لا يعنى كثيراً باعتبارات أخلاقيّة أو اصطلاحات اجتماعيّة من نوع قديم الطراز.

وهل جاءت - يعني - على هذا الرضيع؟

فماذا نقول عن الكبار الذين تقطع رؤوسهم - وأيّ من أعضائهم أيضاً - في كلّ مكان، ثمَّ يلقون، هكذا، في المقابر الجماعيّة أو الفرديّة التي لا شاهد عليها ولا اسم لها؟

في كلّ مكان.. وعلى طول الزمن.

باسم البحث العلمي أو باسم أيّ شيء..

وماله..

ما أجمل أنّ اليقظة لن تأتي، يوماً.

سوف تحرمني الظلمة من جمال الظلمة.

تيقّظت من نومي - هل تيقّظت قط؟ هل أتيقّظ أبداً؟ - في قطار السكّة الحديد المألوف الذي لم أنزل منه حتّى الآن، بعد قلق النومة على خشب مقعد الترسو الناشف المهتزّ، وجدت أنّ القطار يمشي ببطء في ساحة المحطّة التي لا آخر لها، القضبان المتشابكة المتشعّبة هي هي لم تتغيّر، تتوازى وتتلاقى وتنشقّ وتنعرج وتستقيم ولا تتشابك ولا

تصـل إلى غايـة، ووجدت أنّي لا أعـرف أين مقعدي الـذي قضيت ليل العمر الطويل عليه، جعلت أقطع القطار، أذهب وأجيء، أبحث عن مكاني، أجد الكراسي مائلة ومخلوعـة ولها ظهـور نصف مقصومـة ونـاتئة العـظام الخشبيّـة وقـد طلع الحشـو البـلاستيـك منهـا في نتف اسفنجيّـة الشكـل وقـذرة. ألقى الكمسـاري فيقـول لي بـانكســار: «العربة نمرة ستة، أنت طلعت العربة أربعة. ليس هنا. ليس هنا».

وكأنّ عربات القطار تتكرّر وتتزايد وتتمدّد أمـامي، تختلط أرقامهـا عليّ، أسأل الركّاب، نصف نائمين، لا يجيبني أحد.

تنظر إليّ المرأة المـائلة الأعضاء في مـلايتهـا اللّف التي تسقط عن كتف مدملجة مدوّرة ـ كما تسقط دائماً هذه الملاية اللّف ـ ليظهر تحتهـا قميص نوم ساتان عريض الحـمّالات، مبهم اللون غير نـظيف تمامـاً، نظرة خاويـة إلاّ من ملء الجسد الركين، لا تجيب بل كـأنّها هي التي تسأل، بعينين فيهما غياب.

يشيح عنّي العجوز، في جلاّبيته البلدي والبـالطو الخفيف القـديم المصفرّ اللون، هل هو بقّال؟، بوجهه المقدّد حادّ العظام وفمه المزموم كأنّه لا يريد أن يـراني أصلاً، مع أنّـه يعـرف أنّي أقف أمامـه، أسأل أين أنا، أين أنا؟ كأنّه يريد أن ينفيني. يا عمّ، ناقص أنا منفَى؟

القطار يهتزّ، أحسّ أنّه يسير، لكنّه لا يقطع شوطاً أيّ شـوط كأنّـه يراوح في دقّ عجلاته الحديديّة التي تكشط جدران نفسي.

وأظـلّ أمرّ عـبر اختناقـة الصبح التي لا تنجـاب، عبر الـوصـلات

الحديد المرتجّة بين العربات، من باب حديديّ مفتوح إلى باب، يلفحني هواء فجر بارد ومُغيِّم.

هل أنا في محطّة مصر، في اسكندريّة، مسافر إلى أخميم، في محطّة كوم حمادة، قادم من الطرانة، في أيتاي البارود؟

لا أجد، ولا أعرف، أبداً أين أنا؟

أين أنتم؟

النزوة السابعة

في نور الثمل الساطع

تفجّر العالم بالثَمَل الساطع
أسلمته النشوة إلى النشوة المدمِّرة
سقطت أمطار حارّة تغلي
وعندئذ ترقرقت شعاليل اللهب، بوداعة
العالم ناصع متّقد يتأرجح على حافّة حفرة الظلام القديم
يهتزّ على حرف الجرف الحادّ يميل نحو التدهور مرّة واحدة وأخيرة
لكنه لا يتردّى
يتمايل فقط على شفرة السقوط
نزا بي قلبي
تحترق السماء بين أصابعي
وتذوب
لم تبق إلاّ يداي
شجرتين في المنتهى
مشتعلتين بلا انطفاء
ورأيت أنّ مدينتي مدينة النحاس والفيروز مضروبة.
دخلتها من تحت عقد بيضاويّ هائل سميك في بوّابة حجريّة

ضخمة الكتل، الباب الخشبيّ المصفّح بمسامير غلاظ قد انفكّ وانعوج وغرزت أطرافه في الأرض، بثقل.

وكأنّ الأرض تحت المدينة قد هبّ صدرها بأنفاس زلزال مضمَر مكتوم، لم ينفشّ، تفتّق أديمها بشقوق متعرّجة عميقة الغور، وتقلقلت جنوبها المثخنة بالجروح الجافّة.

وكأنّما نُسيت، وإن لم تكن قد اندثرت.

أكوام الأنقاض العالية غير المنتظمة تهاوت، كأنّما من زمن بعيد، وتحلّلت، أحدس من شكلها أنّها هشّة جدّاً، صامتة.

ليس في المدينة النحاسيّة التي انصهر معدنها ثمّ جمد، شيء. ولا أحد.

كلّ الأبواب الساقطة مفتوحة بل فاغرة عن متاهات الخراب.

وكأنّني أعرف - فقط - أنّ هناك مناطق مخصوصة، منوّعة، يقطنها الزعماء، مختفين في أقباء غائرة مقوّاة ومكيّفة. من هناك تصدر الأوامر لسكّان المدينة غير الموجودين. مازالت تصدر من عل.

مناطق ليس عليها إشارة، ولا كلمة مكتوبة من الكلمات التي لها معنى.

ولكن الحظر، والطابو، والقمع المستكن تجثم، غير مرئيّة وإن كانت محسوسة بل رازحة الحضور. التحريم ماثل وقائم وإن كان غير ذي جسم.

هل هذه كلاب كاشرة عن أنياب صفراء مسنّنة طويلة بشكل غير

عادي، واقفة بتربّص بلا حراك؟ أم تماثيل نحاس؟ لم ينلها التحلّل العام؟

هناك غمغمة كهربائيّة لها صدى آليّ أجوف وغائر وغير مفهوم. وكأنّها تلاوة ضاع معناها واندغمت تنغيماتها. هل هي أسجاع كهّان أو أشعار غواة؟ تتردّد في جوّ المدينة الخاوية، تصدر عن ميكروفونات منبعجة الحواف ومتغضّنة ولكنّها مازالت منصوبة ومفتوحة على تلال الحطام المنهار، شرائط التسجيل المغناطيسيّة الرفيعة ملتوية ومتراكبة وممتدّة وملفوفة على بعضها بعضاً، كيلومترات منها مرميّة متدلّية ناتئة ومتساقطة من الركام والهدد اليابس المنساب.

أصل إلى ما يوحي إليّ بأنّه كان الميدان الدائري الصغير الذي كان ينتهي إليه الترام، ويقفل راجعاً، لكنّي لا أجد إلاّ أكوام الحجارة الخشنة والرمال وأغصان أشجار محترقة متفحّمة.

فجأة تظهر ورائي سيّارة مقفلة، مهدّدة، مندفعة نحوي، وكأنّما تنوي في شرٍّ واضح أن تلاحقني، وتظفر بي، وكأنّما هي قادرة على أن تصعد، ورائي، ركام الحجر والملح الصلب.

الشارع يضيق بي، أكتشف فجأة أنّ تلال القمامة تسدّ عليّ كلّ طريق، نتنها لا يطاق، والمطر يسقط عليها وعلى كلّ شيء في صبح هذا الصيف الحارّ.

مازلت أحاول أن أصعد. ليس أمامي من ملاذ إلاّ الصعود فوق الحطام، أتلمّس بيديّ الجريحتين خشونة صفحات الحجر وحدوده التي تكشط جلدي، أتشبّث بالرمال.

متى ينتهي طراد الأحلام؟
متى الأحلام الصيفيّة تكفّ عن مطاردتي؟

النافذة العريضة الواسعة مفتوحة أمامي، على مصراعيها، لا شيء يحجزني عن التردّي في هوّة الضوء الفاغر.

يغويني التدهور، وأنا محمول على أجنحة الضوء غير المرئيّة.

يغويني.

حضور أنثويّ أعرفه، أحسّه في الظلّ، خلفي. لا أتبيّنه تماماً، لكنّي أعرف تماماً دوران هذا الردف المحبوك في التايير الداكن، أعرف لفّة الكولان الشفّاف بسمانة الساق العبلة. ساق كأنّها وحدها، لها حياتها. لا صلة لها - هذه الساق - ببقيّة الجسد. وأعرف أيضاً رهافة هذا الخصر الهفهاف المتين معاً، وانحداره الممتلئ بجسدانيّة النِعَم.

لكنّها تعطيني ظهرها، لن تلتفت نحوي أبداً. هذا أيضاً أعرفه.

وعبر الضوء المعشي الذي لا قرار له، ومن وراء الجسم النسويّ الرقيق الركين معاً، عدت إلى قرية اسمها عزبة ونيس من أعمال مديريّة (محافظة) البحيرة. زرتها مرّة مع خالي ناثان في أوّل عام من الأربعينات البائدة، قال لي خالي إنّ عزبة ونيس فيها عدد من عائلات الأقباط لا يزيد عن خمس عشرة، عشرين عائلة. وكنت أعرف أنّ منهم أسرة كان خالي سوف يناسبها، بعد ذلك بقليل. حدست ذلك بفضول الصبا الأوّل وحرارة المراهقة، وعندما رأيت الست هيلانة سيداروس، صبيّة غضّة الوجه لكنّها هائلة الأنحاء، لا تكاد لفرط جسامتها تطيق الحركة، سحرتني العلاقة بين خالي وزوجة خالي المقبلة.

قال لي إنَّ سائر أهل عزبة ونيس من المسلمين قال لي ما كنّا لنحسّ بذلك أصلاً وحياة المسيح إلاّ لسببٍ واحد، ليس في العزبة كنيسة.

كنّا في طريقنا إلى العزبة، على الحمير. خالي على الحمار الأسود الضخم ثقيل الجسم راسخ الخطو لكنّه سريع قويّ، وأنا على الحمار الأرمد الصغير المتوفز بالعفرتة والخفّة والذي كان عليّ أن أشكمه بنخس رجليّ، بشدّة، في جنبيه، وشدّ اللجام، والتحكّم، بدقّة، في حبل العنان.

في الصبح البدري كان التراب الناعم يثور ويرتفع تحت حوافر الحمارين، ونحن نحثّ السير على الجسر العالي، والنيل، في برمودة، منخفض تحت الجسر، مخضرّ المياه قليلاً وهادئ الجريان. كنّا في صبيحة عيد القيامة.

كان قد قال لي نذهب نعيّد على الجماعة ونعزم عليهم للغدا معنا، من طبيخ ستّك أماليا، طبيخ العيد بقى.

وكانت الفُسحة مثيرة، وهواء الصبح فيه لذعة طراوة حلوة، بينما حرارة الرَمْح على صهوة الحمار أحسّها تغمر وجهي.

وعندما وصلنا مشارف العزبة، ودخلنا حاراتها الضيّقة المتلوية، وشكمنا الحمارين إلى خطو مترفّق وئيد، رأيت عم محمد عباس، بعمامته البيضاء النظيفة، ووجه داكن السمرة ولكنّه صبوح مشرق وباسم - مازلت أرى أنَّ سنّته الأماميّة كانت ناقصة ممّا جعل ابتسامته، بشكل ما، أظرف وأوقع.

كانت معه، ع الصبح، جماعة من أهل العزبة بالجلاليب النظيفة المزهّرة والمراكيب الجديدة التي تبدو لي ناشفة قليلاً في الأقدام الضخمة غير المعتادة عليها، واللبد البني والسوداء كاملة التدوير على الرؤوس الحليقة.

كنّا قد ترجّلنا، فما يصحّ أن نظلّ راكبين، وسرنا وراءهم ونحن نمسك في أيدينا مِقوديْ الحمارين.

ورأيت عم محمد عباس - خالي ناثان قال لي على اسمه فلم أكن أعرفه من قبل - يدور على أبواب الأقباط، واحداً واحداً، يقرعها بقوّة وفرح، ومعه جماعته، ويردِّد: اخرستوس انسطى، ويأتيهم الردّ، بقوّة وفرح، من داخل البيوت: اليسوس انسطى.

ولم يدر بخلدي - كما يُقال - أنّ ذلك مستغرب أو غير مألوف، كنت أعرف أنّ الفلاّحين لا تعرف من شهور السنة إلاّ أسماءها القبطيّة المصريّة القديمة، تزرع وتقلع وتجمع عليها، ويعيّدون الآن على جيرانهم بالقيامة: المسيح قام، بالحقيقة قام.

أيّامها كان ميخائيل رئيس الملائكة قد دحرج الحجر الهائل الثقيل عن فوهة باب الموت. أيّامها سطع النور.

لِمَ الحجر الآن رازح لا ينزاح؟
أين بهرة النور؟

قوّة الملاك ليست إلاّ في أصابعنا المشدودة المعقودة بعضها على بعض، حتّى لو تشقّقت، حتّى لو انقصمت، تظلّ فعّالة.

حكى لي خالي ناثان أنّه كان هنا يوم الأحد الذي فات أيضاً، أحد الشعانين.

قال إنّ أقباط عزبة ونيس كلّهم، عائلات سيداروس ورزق ونخلة وروماني وأباديـر وولسن وغطّاس وفانوس وعازر وويصا وزخاري وقام وبباوي وقوس وسكلة وتودري، كلّهم كلّهم، الشيوخ والكبار والأطفال، والنساء في جلاليب العيد الحريريّة الملوّنة وعلى رؤوسهنّ الطرح الشفّافة النسيج، خرجوا يركبون الحمير والبغال وفرساً أو فرسين أيضاً في قافلة بهيجة ذاهبة إلى الكنيسة في قرية ميت وهيب المجاورة، على بعد عشرة كيلومترات تقريباً، على الريّاح البحيري، يهزّون سعف النخل الأخضر الوارف، مازال بعضه غضّاً طريّاً يكاد يكون شفّاف النسيج، والصلبان، و«شبابيك القدس» التي سهر الصبيان والبنات يخصفونها من الخوص، وهم يرنّمون ويصيحون: أوصنا يا بن داود. هوسانا، هوسانا أيّها الداخل إلى أورشليم.

قال د. صليب بطرس، في شهادته يوم ١٥ أبريل ١٩٩٠ في «وطني»:

> «ويستقبلهم بالبشر والترحاب وبالعبارات الحلوة كلّ من كان يقابلهم في الطريق، أذكر بيقين أنّ أحداً من الإخوة المسلمين لم تصدر عنه عبارة نابية كالتي نسمعها الآن من أقزام أكل قلوبهم البغضاء والحقد الأسود».

أمّا التنّين فقد كان يضحك عن فمه الواسع العميق الذاهب بعيداً إلى ظلمات جوفه وأنيابه الكثيرة المسنونة، وهو يرفع الكأس في يده -

ساقه الأماميّة الصغيرة المدموكة، بأصابعها الثلاثة المتلاصقة تقريباً، وتجري الراح مسكوبة في حنجرته الهائلة بصوت رقرقة منسابة.

كان مستنداً إلى ذيله الملويّ، مستكيناً الآن مطويّاً تحته، وحراشيفه الحادّة القاطعة تغطّي الجسم الضخم الذي يملأ عليّ الأرض برائحة فذّة فيها من نفث السمك وعشب البحر وفيها من حوشيّة عنبر الصواري ومن ضربات نفح الزواحف الكبار.

وكانت عيناه المدوّرتان الجاحظتان عاقلتينْ وفاهمتينْ. فيهما رحمة، فيهما جبروت. قلت: ليستا بالضرورة متعاطفتينْ. فهل هما معاديتان.

أم محايدتان؟

لا شأن له بي حقّاً، مع أنّه يشرب الراح معي في الصيف متّقد الوهج الذي يتدفّق بنوره من طريق خاوٍ حجريّ وموحش، عبر النافذة المفتوحة التي تأخذ مكان الحائط كلّه، تعشي بصري، فلا أراه إلاّ في عكس النور، كتلة من الظلمة المجسّدة، ينساب ضوء خاصّ جدّاً على جنبيه المنزلقينْ.

وكنت أشرب معه نخب موتي.

في نور الثمل الساطع وأنا كلّي نكران

خمر السماء صهباء متوهّجة.

«أيدت محكمة القاهرة للجنح المستأنفة برئاسة المستشار اسماعيل حمدي الحكم الصادر بحبس ٣ تجار شهراً مع الشغل

لكلّ منهم لأنّهم ضبطوا على كورنيش النيل بالمعادي وهم يشربون البيرة وكانوا في حالة سكر شديد».

«أخبار اليوم ٣ نوفمبر ١٩٧٩»

أمّا أنا فقد كنت عارياً أمام عينيه، لا أحتاج إلى ما يغطّي جسدي لم يكن ما بيننا ممّا ينقال، أو يمكن أن ينقال.

لكنّه ـ هذا الذي بيننا ـ كان هناك، ناطقاً من غير نطق بكلّ حشاي وكبدي. كان ساطع الوضوح في دخيلتي، في تلك السريرة الكامنة التي تنكشف الآن في هذا النور.

عجين الحبّ والألم.

استصراخ لعدل في الكون يقول عن نفسه إنّه مستحيل وأنّه قائم، وممكن، وقادم، في آن. ولحنوّ مستحيل. وفهمٍ مستحيل.

الملكوت والصلبوت على ناصية منحنى الطريق.

الشمس تضرب الطريق إلى دمشق بحرٍّ لا يطاق

وما من صوت.

ساقٌ أنثويّة مبتورة، لا علاقة لها ببقيّة الجسد، لكنّها حيّة، تسير وحدها في الشفق، تضرب بفردة حذائها ذي الكعب العالي، على رخام النور الصلب، تدقدق عليه بسرعة وانتظام، لها صدى. أحسّ نسيج الرخام الشفّاف تتفتّت خيوطه الملتصقة بجذاذات قلبي. دامية.

بينما كأس موتي تدور.

ضحكته جشاء من جوف عميق.

أيونان أنا؟ أم شحّاذ ملقى بي، بلا نجدة، على الطريق؟
أمّا هو فقد قال بالأمر الذي لا نقض له.
بعد أن شربنا، دعا بالسيف والنطع.

رأيت رأسي يتدحرج إلى الأرض، مفتوح العينين، وكأنّه يدور في قلب قرص الشمس المتقد، في صباح يوم «النقطة»، في قلب الطبق النحاسيّ المكفّت مفروشة فيه الآيات والأشعار تغوص في لحمه المتماسك بالصدف اللألاء والعاج.

ثمّ رأيت رأسي مرشوقاً في سنّ رمح طويل مغروز في الأرض تحت بوّابة أبو الفتوح تطنّ حواليه سحابات الذباب ولكنّها، بشكل ما، لا تحطّ عليه.

كانَ الرأس ثملاً وسكره ساطع.
و«مسكنه نور لا يُدنى منه»
كنت أنا الآن التنّين.

ودخلت، على هيئته ومثاله، غير مرئيّ، إلى ميت وهيب، مديريّة البحيرة.

كانت صلاة الجنّاز قد أُقيمت في الكنيسة القديمة ذات القبّة الخشبيّة العالية، لا يكاد ضوء الشموع يبدّد عتمتها. وخرج الموكب المختلط المضطرب من الباب الغربي، وراء الصندوق المحمول على أكتاف المشيّعين.

كنت أضرب التراب بحراشيف ذيل قوي، أزحف كجحفل من قوّات الموسيقى. لا يثور لضرباتي هباء أيّ هباء.

وفي الوقت نفسه يتقدَّم الشمامسة وأراخنة القرية وراء الصندوق ـ هل كنت أنا في جوف هذا الصندوق؟ أيضاً؟ ـ أهذا الموكب المترب في الحواري الضيِّقة المتلوية موكبي الأخير؟ كانوا يحملون الصليب النحاسيّ الكبير لامعاً في حرّ الضحى، فصوص ياقوت حمراء تبرق على أطرافه المتشعِّبة على هيئة ورق نبات عريض، تومض في الشمس وتشعّ وتختفي، يرفعون تقدمة التراتيل بالقبطي والعربي، بصوت مرنّم موقّع له سطوة التنغيم العريق.

قال:

«في الطريق كان التجّار يغلقون متاجرهم تحيّة للميّت كلّما مرّ أمامهم وكان يصرّ إخواننا المسلمون على أن يشتركوا في حمل صندوق الميّت إلى مثواه الأخير. وكان الأقباط يصرُّون أيضاً على الاشتراك في حمل نعش الميّت من الإخوة المسلمين. ولايزال إصرار الإخوة المسلمين على حمل نعش والدي طيّب الله ثراه ماثلاً أمام عيني لا يبارحها...»

«أمّا الآن..

«في إحدى زياراته لي قبل وفاته منذ ما يزيد على أربع سنوات سألت القسيس كيف الحال في القرية، أجاب، والدموع في عينيه والحسرة في قلبه، بصوت متهدِّج: كلّما مررت في شوارعها رماني الأطفال بالحجارة مع بعض الألفاظ النابية».

«ماذا دهاك يا مصر على أيدي أناس قلوبهم هباء ونفوسهم خواء»

«أين راحت الصور المشرقة؟»

فهذه شهادة من بين شهادات كثيرة، لعلّها أكثر ممّا ينبغي. فقط

لأنّها كلام. وكلّها تنحو نحو نغمة الميلودراما والنواح على الذات، حتّى لو كانت كلّها صادرة عن قلوب تتفطّر حبّاً.

هل أنا أيضاً أتدحرج نحو الميلودراما؟

كيف النجاة من الميلودراما في حقبة كلّها فواجع متّصلة؟

ياااه..!

ليتني أعرف كيف أقول صرامة الفاجعة، ونسكها القاسي.

دون سقوط في أسرها.

ودون السخر منها.، على السواء

«لججٌ يَمُجْن على جُنُوب سواحل»

لجج الروح، والوطن.

يضربن أضلاع الشطوط بمائهنّ العكر بالدم الذي لا غيض له.

كأنهنّ حيطان الزجاج لا يخدشهنّ قصف الحراشيف العنيد.

وموجهنّ الجيّاش الملتطم ثابت وراسخ لا ينقضّ.

النزوة الثامنة

«دندرة» أندانتي

ألقت «دندرة» مرساها بالليل في حضن النيل، ونامت.

أيقظني فجر الصعيد.

لم تكن الشمس قد طلعت بعد، لكنّها كانت، من الآن، تغمر العالم بنور هادئ ودافئ. وفي هذا الغمر المشعّ بضباب ضوء غير قوي كانت الزروع الغامضة على الشطّ البعيد، والحلفا والهيش أعوادها الرقيقة ملتفّة صاعدة من الماء، تكسوها غلالة بيضاء شفّافة متراوحة الحركة من الصقيع الذي يتبخّر بسرعة، ويتطاير مزقاً متطاولة مدببّة الأطراف تتلاشى في الهواء الساكن بمجرّد أن تتلوّى ذؤاباتها العلويّة المستدقّة.

السكون سائد، والصمت المطبق يؤكّده وشيش الماء الهيّن إذ يلتقي بالشطّ، لا نأمة ولا حسّ. أعرف أنّ ذلك لن يدوم إلاّ هنيهة، قبل يقظة الطيور.

طيور البلشون نائمة وهي واقفة على رجلها الواحدة في رقرقة التقاء الماء بالأرض، رؤوسها محنيّة بلا حراك على المويجات المتسايلة برفق على الطين الرمليّ الذي أرى بياضه المخايل، من بعيد، وأنا على

حرف المركب العتيق. يتمايل بأهون حركة لا تكاد تُحسّ. الهلب الحديديّ ساقط في العمق. ونحن في وسط النيل.

الشمس الآن قد اخترقت سحب الصباح الأوّل. سطع حرّها، ببطء.

عقبان الجبل تدور في السماء العالية، سوداء في النور، جليلة، آمرة، وافدة من ناحية الجبل الشرقيّ القريب المطلّ على شريط ضيّق من الخضرة، يمتدّ متعرّجاً ومحصوراً حتّى يسقط على جنب النهر العريض.

وكأنّ «دندرة» تطفو على مياه حلم.

النيل ساج وعميق يحضنها يخفيها عن الصبح. عن الزمن.

ثمّ ارتفع الهلب، وسار المركب، كأنّما من تلقاء نفسه، صوت المحرّك خافت منتظم رتيب كأنّه نبض مكتوم.

نقترب الآن من الجزيرة الصخريّة الشاهقة، تظهر شيئاً فشيئاً، تصعد من قلب أبخرة الضباب الأبيض المتطايرة ذوائبه في خصل متحلّلة.

قيل: لا تظهر إلاّ مرّة واحدة في السنة.

قيل: لا يراها إلاّ من كُتِب له أن يراها.

قيل: تمرّ المراكب فيها أحياناً، لا تراها، لا تصطدم بها، تخترقها من غير أن تحسّ.

قيل: إلاّ من ضُرِبت عليه النعمة.

قيل: ويأتي من كتبت لهم القسمة، ويذبحون الأضاحي على

منصّات الجرانيت المنصوبة أمام العتبات، الخراف والمعيز والعجول والثيران، وتنساب الدماء في المجرى الدقيق المنحوت في قلب الجرانيت ثمّ تنصبّ على الشطّ، تتشرّبها الرمال التي لا تشبع.

قيل: سحابة النهار، من طلعة الشمس حتّى مغيبها، فقط. ثمّ تغوص مرّة أخرى. إلى أن تطلع في السنة التالية، على غير ميعاد، في يوم ما، لا يعرفه أحد، لا يراها كلّ أحد.

حطّت «دندرة» بهدوء على شريط رمليّ ضيّق متعرّج فوق جرف صخريّ عميق ذاهب إلى غور بعيد في النيل، منحوت وقاطع الحافّة.

وقفز عم شاذلي برجليه الجافّتين العاريتين من على حرف المركب إلى هذا الرصيف الطبيعيّ القديم، في وثبة واحدة. كأنّه لا جسم له، وربط الحبل المتين الغليظ في نتوء صخري مدبّب كأنّه معدّ سلفاً. فثبت المركب، واستقرّ.

أمّا نحن فقد نزلنا، من غير صعوبة، إلى الشريط الرمليّ الضيّق، على سقالة خشبيّة مضلّعة، لها حزوز ناتئة. أحسست صلابة الصخر تحت قدميّ، من تحت طبقة الرمل الناعم الشحيح.

هل كنّا جماعة من الأخيلة، بلا جسوم؟

لماذا إذن كلّ شيء محدّد، ولماذا النور صلب ونقيّ ولا تشويه هبوة، كالماس الصافي؟

كنّا على بعد ألف كيلومتر من البحر ولكن النوارس انطلقت فجأة، من مخابئ لها على الصخر، تزعق بصيحات ثاقبة ثمّ تسكت.

وكان أبو نقّار قريباً منّي جدّاً، أسود الجناحين ناعم الريش، يحوم

بطء، صامتاً، في دوائر واسعة تضيق بالتدريج، ثمّ ينقضّ مرّة واحدة بمنقاره المسدّد الطويل.

ودخلت.

الأعمدة الأسطوانيّة مسحوبة من تحت ممتلئة عند سمانة الساق تنتهي إلى أكاليل اللوتس الملتمّة المضفورة غضّة الحجر.

وصلت إلى ساحة الشموع.

وعبرت إلى العقود الدائريّة المخطّطة بلونين عريضين البنيّ والأبيض على التعاقب والمقرنصات المثمنة والأعمدة الرخاميّة المصقولة رشيقة متوّجة بأكاليل الغار الروماني المقهور.

تُحدِق بي وتحدِّق إليّ وجوهُ حتحور المسطّحة بعيونها النجلاء المستطيلة وآذان البقر الدقيقة المفلطحة على جانبي الخدود العريضة وعلى شفتيها ما يشبه الابتسامة العارفة جسمها طريّ ومتماسك معاً يدرّ جلدها البلّوري الأسمر بلبن غير مرئي طعمه الحلو في فمي المضموم.

انفسحت الردهة المستديرة تحت قبّة عالية مقمرة متناثرة النجوم تمتدّ خيوط نورها إلى أيقونات خشبيّة معلّقة على حجاب الهيكل المطعّم بالعاج والأبنوس.

الدروع والخوذات المجعولة من حلقات حديديّة دقيقة متشابكة معلّقة على جدران عريضة الأحجار تنفتح عن مشربيات خشبيّة رائقة التشكيل لا تنتهي العين من تملّي تشابيكها.

ركام قمامة التحديث والتصنيع والسوبرماركت والبضاعة المسمومة بالأصباغ والكيماويات والفيروسات.

وتطير حواليّ الصقور الملكيّة الدقيقة والحدأ مبسوطة الجناحين ماسكة مفاتيح عنخ وريش مَعْت وتلتفّ بي الثعابين المُتَوَّجة المتموِّجة وتعود إليّ طيور أبيس المنقرضة واقفة بجلال على ساق واحدة تحت نظرات تُحوت القرد الحكيم بينما تزحف الجعارين بتصميم وعزم تحت سيقانها المغمورة في الأرض المبلولة بطبقةٍ رقيقة من الماء.

رائحة البخور البونتيّ وخشب الصندل المعطّر وذوب الشمع وفوح الأواشي والتراتيل بالكلمات العتيقة المكرَّسة منذ القدم.

النخل ينوس في أحواش الروح الداخليّة المكنونة بسعفه النجرانيّ يلقي بظلاله على ثمار الرمّان على بزّ أمّه تبضّ حبّاته الورديّة بالشهوة.

امتدادات الكباري الخرسانيّة التي تنتهك جمال المعمار الغارب وتقتحم عليه مكامنه الرهيفة.

الهواء الآتي من غور الدهور يهبّ عليّ في دهاليز الروح المتحدّرة المطبقة عليّ لا تكاد تسري جسومنا منها محنيّة الرؤوس إلى الأبد تقديساً وإجلالاً ودرجات السلّم تحت الأرضيّ لا انتهاء لها.

ترانيم الأبصاليّات والذكصولوجيّات بالنغم العريق المُحتِد على دقّات المثلّث النحاسيّ له صدى في ردهات السرائر لا يضيع.

وإنشاد الذكر المتّصل نشوة الحميا عضويّة وميتافيزيقيّة شطحات الأجسام المتمايلة في متاهات الغياب في سكر الحبّ الإلهي تواشيح المدائح تمتمات غرائب الكلمات.

أحجار الدهور لا تبلى وإن تحيّفتها السنوات التي بلا عداد أعرف اطمئناناً وراحة وعودة للوطن العتيد حتّى في ضيق الحيطان الألفيّة وفي دخيلة مساربها الخفيّة.

كانت الجمال تقف جامدة بصبر في ظلّ الصروح القديمة تنتظر اللانهاية.

ثلاثة أربعة جمال فقط ممدودة الأعناق نحو الرمل ثابتة العيون.

بينما يموت الرجال والنساء عطشاً مرميّين على الرمل أيديهم ممدودة نحو الماء لا تصل إليه كأنّما يعوقهم حاجز غير مرئيّ لا قِبَل لهم به والنخل فوقهم قليل ونحيل سعفه مترب جافّ الحفيف ظلاله تكاد تكون شفّافة.

وجوههم التي تململت وتمرّغت وتضرّمت ظمأ لا يستطيعون الآن رفعها لم تعد فيهم منّة لا طاقة بهم على الحركة.

عطش الشبق من غير يقين عطش الهوى من غير ريّ مُلقىً بهم نصف عراة ملتفّين وملتفّات بملاءات كانت بيضاء وقد اتّسخت الآن وتربت وبها بقع مصفرّة داكنة بين الأفخاذ.

الأفخاذ النسويّة مازالت طريّة غضّة وإن كان فيها ما يؤذن من الآن بالجفاف الوشيك والأثداء متهدّلة ومسحوقة ومنبعجة ومطويّة تحت الصدور عليها ذرور الرمل الأصفر الدقيق الحبيبات.

جذوع الرجال كنخلٍ ثاوٍ مضروب مازال منتصب العود وإن كان مخلوع الجذور أسمر الحراشيف العيون قد خبت أو كادت ولكن مازال فيها بريق عنيد تومض منها سنان الروح الحادّ غير المنكسر.

ورأيت أنَّ جدائل النساء أثيثة عميقة السواد وللرجال شعر أكرد منفوش.

يا لؤلؤة النسوان مازلت أذكرك ميّتة من العطش كأس وردتك القانية بين أعشاب ساقيك الطريّة مبلولة حوافّها بطعم خمر حريفة صهباء لا ينتهي السكر بها.

انحلَّت أوصالك بين ذراعيّ صدقاً أم كذباً لا يهمّ وقد هلك على يديك الرجال وهلكتُ من فرط ظمأ شبقك من فرط افتقادنا، وإتياننا، فنون الوصال.

ها نحن، أخيراً، جماعة الأخيلة.

عناقيد ديونيزيوس قد ارتوت من الفيضان وطميه الأحمر نبيذها مرميٌّ على العتبات المحفورة بالخطّ العتيق.

صروح الصلب والزجاج المدخّن أبراج الشفق الصناديق المؤثّثة بأجهزة الغسيل والتبريد والتجفيف والتسخين واليكترونيّات الحسابات والجداول والأرقام.

تشوُّق الموج الحبشيّ المدوّم سمكات موشومة بخمسة حروف أبديّة والصلبان مبثوثة على وجه القمر مزدهرة الذراعين والساق تسبح بهدوء يغمرها موج شفّاف وينحسر.

صور الخيالات المتعاقبة على ضجيج الصنوج والأرغن الكهربيّ وانصباب الموسيقات المعلّبة المحنّطة ميكانيكيّة الصدى.

بينما تفيض قطرات الدم الإلهي بلون نبيذ الأباركة القاني الداكن على سخونة الخبز غير المتخمّر الحيّ أبداً المطعون خمس طعنات.

زعيق المحرّكات . . ما أشدّ اختلافه عن زعيق النـوارس لا يتوقّف في داخل حيطان القمع والكبت والضيق .

الأواوين مفروشة بـالقصب منصوبـة على سجـاجيد عجميّـة وثيرة تحت المشكاوات النحاسيّة التي يتقطّر من زجاجها الكتـوم ضوء منمنم مهندَس التقطيعات ينسكب على أغصـان الأشجار المـورقة وسـلاسل الذهب .

طلقات الرشّاشات تصوّب على موتوسيكلات هادرة لها أنين وأزيـز وتصوّب منها، قتل الجسوم قتل الفكر قتل كلّ اختلاف .

الإبـر المسلّات أعمـدة الأجراس المجلجلة مـآذن المواقيت تصعـد متواشجة في وميض آفاق صعيديّة متوسِّـطيّة صحـراويّة معـاً مفتوحـة سمحـة مذهَّبـة مخروطيّـة الذرى رمـال السـماوات أمـواجها صخـورها نهرها الجيّاش لا يقوى عليها الزمن .

وعندما خرجتُ كانت أسراب الوزّ تنـساب بسكون رافعة الرؤوس طـويلة الأعناق عـلى مياه الشطّ الـرمليّ، والبطّ الصغير يتـدأدأ عـلى أقـدامه المفلطحـة وينزلق فجـأة إلى الماء ليـطفو وهـو يبـطبط بصـوت رفيع .

أمّا هو فقد كان راكعاً على ركبتيه في ساحة الشطّ الرمليّ، حافيـاً، مغلّل اليدين وراء ظهره بأصفاد حديديّة ضيّقة، حافياً، لا تسـتره إلّا خرقة بيضاء ناصعة ملفوفة حول حقويه وفيما بين فخذيه الناحلتين.

كان نقيّ النظرة مع ذلك في وجه جلّاديه.

وكان القضاة الجلّادون ملثّمين، جـالسين بـراحة وثقـة، مرتـدين

الحلل السوداء المحبوكة وعليها الأوسمة والأنواط القماشيّة الملوّنة مخيّطة في النسيج الأسود الحالك السواد، أحذيتهم الجلديّة العالية لامعة تصل إلى ما تحت الركبتين بقليل، متمنطقين بمسدّسات ضخمة عيار ١١ ملليمتر تحت الأحزمة الجلديّة العريضة، وأمامهم على الرمل بنادق آليّة رشّاشة غليظة الأنابيب مصوّبة نحوه.

وفيما كان قضاته جلّادوه الثلاثة - لا تبدو من لثامهم إلّا عيون قصدها واضح الشرّ - أمامه، تحت ظلّة منصوبة على أوتاد خشبيّة طويلة والمراوح الكهربيّة الضخمة التي تشتغل بالبطاريات القويّة تئزّ وتصنع دوامات متناوبة من الهواء الرطب، كان رأسه مكشوفاً تحت وقدة الشمس، مرفوعاً، وكان الرجل أصلع وعجوزاً.

قالوا: أنت ارتكبت إثم الكبرياء.

قالوا: أنت طلبت الحريّة وطاولت بقامتك الهزيلة قامات الآلهة.

قالوا: خطيئتك الكبرى أن سعيت إلى المعرفة، وفي سبيلك إليها خالطت الغرباء والمشبوهين.

قالوا: كيف جرؤت أن تقول - بل أن تفكّر - ما يغاير المكرّس المأثور.

قال: ليست هذه آثامي. بل هي إن صحّتْ فضائل ليتني أملكها.

قال: يا أسفي! أنتم الخطاة.

ولم يزد

كانت ركبتاه اللتان تحتكّان بالرمل والحصى الصغير تنزّان بالدم النزر، وكتفاه موجعتان، مثقلتان.

قال لنفسه: ألم تكن تقدر أن تعبر عنيٍّ هذه الكأس المرّة؟
قال: لا في المجد. بل في الانكسار.
وسمع الجواب: لا.

كان رافع الروح.
وما قتلوه وإن كان الحكم غير المنقوض قد صدر.

وعندما التفتُّ وجدت أنَّ «دندرة» خاوية، هجرها الريّس شاذلي ونوتيّته الصعايدة الأشدّاء إلى غير عودة.

وكانت الأمواج تضرب جنوبها برفق، بصوت ملامسة مائيّة نسائيّة شبقة.

وعلى الشطّ الآخر الذي يبدو بعيداً جدّاً، وكأنّما باتفاق مسبق أو وفق إشارة خفيّة، انطلقت في سحابة واحدة مرفرفة مئات طيور الخطاف والقطا النيليّ والزرازير والعصافير البلدي وعصافير الجنّة معاً، مندفعة كالسهام، تزقزق وتشقشق وتسجع وتغرّد تعلو وتهبط وتهبّ وتطفو فوق سعف النخيل الواطئ الذي يكاد ينوس يلمس صفحة النيل مائلاً من فوق الجسر الترابيّ المتحدّر نحو الماء.

ورأيت صَدَفة هائلة من قواقع الدرّ الكمين، خاوية، مفتوحة، ورديّة اللحم، لدنة وصلبة معاً، مثل جسد أنثويّ.

وكانت الجزيرة الصخريّة تغوص بما عليها تحت الموج، تصعد مياه النيل المخضرّة ذات الزبد القليل المرغي على شطّها الرمليّ، ثمّ صخورها، ثمّ صروحها، فقاقيع الهواء الكبيرة تصعد، من بين

الأعمدة والمصاطب والهياكل والمسلّات، وتنفجر، على السطح، بصوت فرقعات مكتومة.

هل رست بي ريح الهوى على ساحل التهلكة الصخريّ، يطفو عليه زبد الملح الذي لا يكفّ عن الترغّي؟

في مسارب الظلمة تنكسر السهام ولا تصل. لأنّ الريح قاسية.

هذه المسارات فاحمة الحيطان يتراكم فيها ثلج آسن، شفق خامد يخيّم على شاطئ الوحشة النهائيّة الذي خلقته نزوة شطط.

ذابت الفضّة الدافئة وبردت في ثنايا صروح الصخر.

أعددت لنفسي قطعة النقد البرونزيّة قبل أن أدخل، أعددت ثمن العبور في الظلام، لا أدري، هل يخونني ملّاح نهر «استكس» المخوف؟

لا، ليس مخوفاً، الخيانة هي التي تخيف.

القطط وبنات آوى والضباع والحدأ عريضة الجناح تنتظر.

كيف تتّقد تلك الشعلات مضطربة النور على الساحل المقفر؟ ممّ جاءت؟ متى تنطفئ؟

أيْناي من شاطئ مرساي؟

وهل لي ـ حقّاً ـ برّ أرسى عليه؟

٩ ـ الباب الأخضر

قالت لي: العنوان سهل. لا يمكن أن تتوه: ٩ الباب الأخضر، في سكّة الجمرك.

ولّما كنت أكنّ للرقم ٩، من أيّامها، إجلالاً خاصًّا ـ أقرب إلى السحر عندي الرقم ٩ ـ ولّما كان الباب الأخضر أيضاً يوحي بالتفتّح والنفاذ إلى آفاق مزدهرة بالخصب والحياة، فقد وافقت.

طول عمري غريق في بحر الإشارات.

ولكنّي لم أكن أعرف ماذا ينتظرني.

تيقّظت في الصبح البدري، نافذتي مفتوحة على سماء صافية شفّافة الزرقة تقريباً، تلوح لي من وراء الشجر الذي عريت فروعه من الورق، وبدت نحيلة ولا مناعة لها إزاء هذا النقاء المستحيل.

لكن شجرة البنسيانا الوحيدة باذخة الورق كانت مشتعلة بزهورها الحمراء متفجّرة بنارها النباتيّة البهيجة سعيدة بمجرّد وجودها وازدهارها.

لم أكن عادة أوافق بسهولة على الذهاب إلى أحد هذه البيوت

«السرِّيّة»، كان لي بإزائها ألف هاجس وهـاجس أحسب لها حسـاباً: الأمراض المشينة المستعصية، البلطجة، احتمالات السرقة أو الضرب أو البهدلة، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك، فـالرثـاثة المنفّـرة والفقر الـذي يحبط الحسّ ويقتل الشهوة، وكلّ هذه الأمور التي لا تحتاج أن أقولها.

ولكنّي هذه المرّة قلت أذهب وأحتاط وأجرِّب، أو أذهب وأغـامر، يا الله بقى، إلامَ أظلّ أتوجّس وأتحوّط، يا شيخ دع الأمور تجري على هواها.

ثمّ إنّ هذه امرأة خـاصّة، ليست من النـوع المألـوف في مثل هـذا الجنس. هي في النهـاية، قلت لنفسي، ليست فيـها يبـدو بضـاعـة يـا أخي، بل امرأة، أقول لك، وامرأة خاصّة جدّاً.

كان الغروب ذهبيّـاً محمرّاً ونحن عـلى الكورنيش، ولمّـا وصلنا إلى السلسلة ودخلنا إلى اللسان الـذي يشقّ البحر، كـان المدفـع الضخم وراءه مصوّباً نحو الأفق، قالت لي:

- حارجع من هنا، أخرّم من الشـلالات. العواف بقى يـاخويـا، فتّك بعافية. أشوفك بكرة؟

كان في سؤالها قلق الرغبة الـذي يتجاوز مجـرّد إنهاء صفقة، ونـوع من طلب النجدة الصموت.

عندما مضت، كانت السماء صخريّة، لا تناقش.

ندمت قليلاً لأنّي لم أعرض عليها أجرة التاكسـي، قلت، متأخّراً، مشـوارها طـويـل. صحيـح لم يكن في جيبي إلاّ حتّـة واحـدة بعشرة

صاغ، ونصف فرنك، وشويّة ملاليم، لكن كان يمكن تدبير الحكاية. خلاص، قلت، كالعادة، فات الأوان.

أمّا في هذا الصباح فقد كان قلبي يطفو تقريباً فوق الماء الملح المتموّج من الشوق، والرقّة، والحبوط النهائي.

لأنَّ عينيها كان فيهما هذا النور الذهبيّ الباهت عند الغروب، وكانتا مرفوعتين إليّ بسؤال لا أعرف إجابته. ولن أعرف أبداً، قلت.

مازلت لا أستطيع أن أتحمّل عبء الأحلام، ولا ثقل الأسئلة.

أنوء بها.

ماذا يفعل الناس، قلت، ينسونها؟ يطيقون حملها والنهوض بها وهم يمضون في طرق حياتهم، كلّ يوم؟ وسكك الأحلام، هل يجرؤون على طَرْقها؟

أم ينكصون؟

أم ينفضونها عن أكتافهم، يعني، وبذلك لا بدّ ترتفع وطأتها وتنزاح.

هل ينطلقون بالفعل خفافاً؟

أم أجد في سيرتهم تلك الخطوة البطيئة، فيها ندم؟ ملل؟

أتخيّل عالماً كلّه لحظات حادّة ولامعة.

كحدّ سكّين.

قاطعة.

ليس فيه لحظات مترهّلة مجوّفة سميكة الجلد.

ليس فيه عجين حامض خمران.

أريده

عالمًا لا يُطاق.

نـزلت من بيتنا في شـارع ابن زهر، وركبت الـترام، لغايـة محـطّة الـرمل. كـانت البلد يقـظة نشـطة وهـواء المينـا الشرقيّـة، في أوائـل مارس، مبلولاً.

وكان وشيش ماكنات القهوة الاكسـبريسو والكـابوتشينـو وشهقاتهـا المفاجئة بـالبخار المنـدفع ورائحـة البنّ البرازيـلي الأصلي النفّـاذة تملأ المكـان بدفء حميم. شـوالات البنّ مرصـوصة عـلى الأرض الرخـام مسنودة إلى الحائط اللامع من النظافة، وعليها الماركة المدوّرة المميّـزة. الطاحونة الضخمة، رابضة وراء سور قصير من قضبان حديديّة، تهتزّ بذبذبات متلاحقة، وتفوح منهـا رائحة البنّ المـطحون، طـازة، عبِقة بالحوشيّة.

وأنـا أشرب بـاستمتـاع خـالص من الفنجـان الأبيض المستـدير، أستـطعم أيضاً سـماكة جـدران الفنجـان الصينيّ المـدوّرة، ومفـاجـأة الشفـطة الأولى من الكـابـوتشينـو السخن رغم أنّ متعتهـا متـوقّعـة ومكرّرة.

وعنـدما خـرجت سمعت ضربات المـاء بسور الكورنيش، وطـالني بعض رذاذه، على الصبح، وبلّ جاكتّي الـزرقاء الـطويلة التي لم يكن عندي غيرها. كانت الجاكتّة تنزل إلى ما فوق الركبتين بمسافـة قليلة، وكان فيها، مازالت، أناقة أيّام عـزٍّ غابـر قبل أن تـأتي من أمريكـا في بالات المعونة وتشتريها لي أمّي باثنين جنيه. وكـانت مدفئة، بطانتهـا حريريّة، ورافقتني سنين طويلة.

وصلت المنشيّة، منتشياً بالبلل في هواء البحر وإيقاع وشيشه المطّرد وخبطاته على كتل الأسمنت اللَّزجة بالطحلب الأخضر، وحوّدت من عند ضريح الخديوي اسماعيل الرخاميّ ذي الأعمدة البيضاء الرشيقة، ومن عند تمثال جدّه الذي كنت أظنّه يحمل سيفاً برونزيّاً على جنب حصانه الصافن الصاهل دون صوت، وعبرت وسط الزحمة من سوق الخيط وسوق المغاربة وسوق العقّادين وسوق الصيارفة وزنقة الستّات وسوق الخرَّاطين وشارع فرنسا. وعبرت بذهني خاطفة صورة أوديت التي تنتظر منّي أن أتقدّم لها رسميّاً، ولم أفعل قطّ، ولقيتها مرّة في سوق الطويلة وأدانتني إلى الأبد نظرتها الجريحة القاتلة، ونفيتها ثلاثاً، وكنت قويّ العزم على أن أذهب مشياً حتّى الباب الأخضر.

كنت قد دخلت «بودرو» على قمّة شارعي فؤاد وشريف، قلت أتشبرق بحتّتين جاتو وفنجان شاي على العصر. فيمَ كان الاحتفاء النادر بنفسي؟ الله أعلم، هو أنا عقلي دفتر، نسيت.

كان «بودرو» فسيحاً ومريح الهواء، نظيف الأرضيّة يلمع رخامها لمعة أنثويّة تقريباً، والفترينات الداخليّة تضيء من وراء زجاجها البلّوري السميك بقطع الجاتو لدنة ومتماسكة القوام: الشيكولاته بوجوهها البنّيّة المحبّبة حبيبات مدوّرة دقيقة في غاية الصغر محدّدة ومتلاصقة، والكريم شانتييه الفضّي اللألاء المتجمّد برشاقته في سيولته المخادعة المغوية، والميل فيّي بطبقاته الرقيقة المسوّاة بعناية الحبّ، والميرانج الهشّ المكوّر أكاد أحسّ رقّته تنكسر في فمي لتغمرني زبدة اللذّة المتسايلة.

رأيتها تدخل، متردِّدة قليلاً، تنظر بقلق إلى الروّاد القلائل في أوّل بعد الظهر، وإن كان واضحاً أنّها تعرف هذا الموقع جيِّداً من مواقع جولة صيدها.

كان حذاؤها الأبيض بكعبه العالي المصمت قطعة واحدة من المقدّمة حتّى الكعب، كان اسمه «كعب دبّابة»، يرنّ على رخام «بودرو» له صدى.

ابتسمت لها.

ألم أقل إنّني، على غير العادة، كنت أحتفي بنفسي؟

فأقدمت عليّ دون تردّد، وجلست على المقعد الصغير الأنيق المصنوع من الخشب الموجنى المشغول والمصقول، ذي المسندين المحسوبين برهافة، وقالت، بصوت خافت على نقيض ما يتوقّع المرء من مهنتها: سعيدة.

رأيت «الأهرام» في يدها. كان مسك الجرنال علامة شياكة، درجة فوق من درجات السلّم الاجتماعي، وكان المانشيت ببنط المطبعة الثُلُث ـ لم تكن اكليشيهات الخطّ قد عرفت بعد ـ «سقوط طبرق بعد مقاومة باسلة».

كانت الجاكتّة الصيفي البيج ـ قلت خفيفة عليها في أوائل مارس هذه ـ لها كتفان محشوّتان عريضتان تعطي جسمها الصغير قوّة واتّساعاً وتكسب وجهها المسمسم رهافة إضافيّة، وخيل إليّ أنّني لمحت في صدر البلوزة السمني، تحت الجاكتّة، آثاراً مخفاة بحرص لخياطة ترتق تمزّقاً قديماً في القماش الحريريّ، تحت الصدر مباشرة.

عندما جلست ارتفعت الجيبة الصوف البنّي الداكنة إلى ما فوق ركبتيها السمراوين، بكثير، قلت في نفسي الجيبة شتويّة وثقيلة، قصيرة، على موضة السنة التي فاتت، ليس عندها غيرها ربّما، ورأيت بنهم لا أكاد أداريه أنّ ساقيها اللتين تعرّتا حتّى منتصف الفخذين تقريباً، ناعمتان وراسختان، متينتان، على عكس ما كانت توحي به خطواتها غير الواثقة.

سوف أقول: ألم يندثر ذلك كلّه؟ بودرو؟ الشرموطة نصف الأنيقة التي تقيم في سكّة الجمرك؟ وهذا الذي يحكي الحكاية كلّها، أليس هو أيضاً مندثراً؟ ماذا يريد أن يثبت، يعني؟ كلّ ذلك راح، وكلّ حكايات الدنيا لا تعيده، ولا صلة لها به. يعني.

جسده مظلم

دقّات طبل بإيقاع اسكندرانيّ تتقاطر، تتلاحق، تدوّي بقوّة ورقّة معاً، في صمت محبوس الأنفاس، في عتمة مخايلة ليست مؤكّدة.

الجعارين مقوّسة الظهر مدرّعة ضدّ الزمن تنحت طريقها إلى خارج التربة الغمقة، بحثاً عن نور غير مؤكّد.

لم تكن شرموطة الجمرك هي التي ستقول لي ذات صباح، بالانجليزية:

ـ أنت صنعت يومي!

لأنّني، فقط، أحببتها، وقلت لها حبّي.

أمّا هي فسوف تقطّع الحياة ـ كما تفعل في كلّ شيء ـ إلى شرائح منفصلة، إلى قطع متباينة لا صلة للواحدة منها بالأخرى، تأتي

الواحدة منها بعد الأخرى. كلّ يوم لوحده. كلّ يوم مفارق ومغاير، وكلّ مزقة من اليوم، وحدها.

أيّام وليال ممزّقة يهفّ عليها هواء الذكريات الضعيف.

أمّا أنا، في طفولتي وشبابي، وأظنّ ذلك مازال سارياً في دمي وفي أركان من روحي - هل هو باقٍ في أرض الوطن كذلك؟ - فعندي الحياة منسابة على ساحتها، دون حدود، دون تجزيء. ماذا يهمّ اليوم بالذات؟ أو أيّ ميقات؟ ألم يكن هناك الأمس - ألم يزل هناك الأمس؟ - متّصلاً به، جارياً إليه، منصبّاً فيه، نابعاً عنه، وأمس الآخر، وأمسيات وأصباحٌ وليالٍ منقضية قائمة قادمة معاً، أليست كلّها إمّا غير موجودة أصلاً وإمّا متداخلة متداغمة؟ سعادة الأمس باقية لم تنقطع على نحو ما، ولا شحب وجهها حتّى. . وآلام الشباب - والعمر - تتقلّب بالمضض الذي لا ينتهي، لم تمح بعد، لا يمكن أن تزول، ما حدث في الغد، ما سوف يحدث البارحة، ما لا يحدث الآن، ماثلة معي، معاً، أبداً. لم تقف لأنّها لم تجرِ قطّ، لأنّها لا تجري. فلماذا تحيّتها لي لأنّني صنعت يومها، اليوم؟

سوف يكون ذلك آليّاً جدّاً.

ذلك يوم من أوائل مارس في الأربعينات، في الباب الأخضر.

نحن أبديّون، سرمديّون، أهرامنا قائمة في ساحات داخليّة، وليست في نهاية شارع بذيء. اليوم - الليل عندي لا يمضي، ثقل من البَرَكة أو من الخواء، ليس للدهر أوّل ولا آخر.

الباب مفتوح دائم الخضرة أو قاحل جافّ، في كلّ الدهور.

كانت مخازن القطن على جانبي الشارع تعمل بنشاط، بنوع من الاستبسال اليوميّ غير المدرك لشجاعة يأسه، النوافذ التي تشغل واجهة حائط المخزن كلّها، فاغرة، ارتفعت مصاريعها الحديديّة المصبوغة بالأحمر الكابي، عن فراغ متلهِّف بعيد الغور. الأوناش الضخمة تئزّ سلاسلها المتينة خطرة الشكل ترفع بالات القطن الهائلة المحزّمة بسيور مسطّحة لامعة بين الزرقة والسواد مغروزة في جُنُوب البالات تمسكها بدقّة وإحكام. الأسطى الونشجي يشوّر بيديه وذراعيه بحركات متفق عليها: بيرة. . ! فيدور الونش دورة كاملة. . نص عندك. ! تهتزّ البالة في نصف دورة. . ستوب.

البالات مشبوكة بخطاطيف ماكرة لا تثقبها، تصعد من على ظهور الشاحنات التي يبدو شكلها عتيقاً، مربّعة الخطم، مفتوحة تنفث بخاراً عن أفواه محرّكاتها العريضة، لكنها شغّالة فعّالة حمّالة الأسيّة.

وعربات الكارّو الطويلة التي تجرّها أحصنة فارهة متينة الكفل تزاحمها، تقرقع إذ تتلاحق دقدقاتها وهي تدور بعجلاتها المكسيّة بالحديد على بازلت الشارع المضلّع.

قلت: ها هي شونة الخشب. نمرة ١١. خلاص وصلت.

كانت الشونة مفتوحة واسعة، لها سقف جمالون بالقرميد الأحمر القديم يصل إلى نصف الشونة ويترك النصف الثاني مكشوفاً تحت السماء. والبغال مربوطة جنب الحائط. مدموكة ثقيلة، تدسّ خطومها عميقاً في المخايل، تزفر فيتطاير حول أسنانها الضخمة المكشوفة رشاش من هشيش التبن بلا وزن، خفيف، خالص.

كـان السلّم كما كنت أنتـظر تماماً، مظلماً لا أكـاد أرى فيه شيئاً، تلمّست طريقي عليه بقدميّ ويديّ المتمسّكتين بالدرابزين الذي لم أكن أعرف حتى، مدى نظافته. حدست من لزوجته المتماسكة القديمة أنّه متراكم القذر، لكن قذارته جافّة، تاريخيّة.

ذكّرت نفسي: الكات الثالث، يعني رابع فسحة، وعندما وصلت كانت لمبة ثمرة خمسة، مدغمسة، صفراء النور في شعلة السلك الكهربيّ المتعرّج وراء الزجاج غير النظيف، تتّقد بضعف على الباب.

قلت لنفسي: كأنّني في فيلم عربي قديم. لكن الديكور، هنا، حقيقيّ غير مصنوع.

ياما يحاصر الواقع الرثّ الخيال المتنزّي، قلت.

قلت: يا سِيدي على الحِكَم!

هل هناك واقع خارج الخيال؟ قلت.

عندما فتحت لي الباب، تدفّق النور من نافذة مواجهة تفيض وتنسكب بأصص الزرع ونباتات الظلّ.

ولمّا انجابت بهرة النور المفاجئ رأيت أنّها تلبس قميص نوم. بيتيّ، طويل الذراعين، ساتان أزرق لامع، ولكن طيّات البطن وأعلى الساقين، من اللبس المستمرّ، تركت خطوطاً باهتة بان منها نسيج القماش التحتانيّ نفسه تحت لمعة الساتان. وفتحة العنق مرتفعة، محتشمة. ولكن القميص الطويل مشقوق من الجانب حتّى منتصف الفخذ، ليتيح لها حرّية الحركة، والمشي. وكانت تلفّ رأسها ـ كالمنتظر بالضبط ـ بمدوّرة من قماش خفيف مزرق، غير

لامع، اكتسب من طول مسكته بشعرها طيّاته ولفّاته نفسها، كأنّما سرت في نسيجه حياة خاصّة، وحرارة خاصّة، من الشعر الخشن القوي.

كما سوف تلبسه امرأتي الأخرى في زمني الآخر.

في الفسحة الطويلة البلاط المغطّاة بكليم أسيوطي، رأيت طفلها، قالت: اسمه مرسي، اسم الله عليك، شي لله يا سيدي المرسي أبو العبّاس. كان الولد عمره سنتان ربّما، أو أكثر قليلاً، يمكن. وكانت عليه فانلّة واحدة، ع اللحم، جسمه مدملك اسطوانيّ الشكل وبطنه بارز، جالساً على قصريّة صاج، عاري المؤخّرة، سعيداً بما ينجز، في وسط «الصالون».

وقدّمت لي كوب كركديه، سخناً، فيه حرافة مثيرة.

كأنّني في زيارة عائليّة، لبيت الجيران مثلاً.

لاحظت، لأوّل مرّة، أنّها لم تكن قصيرة جدّاً، ولا طويلة جدّاً. سوف أعرف حنكتها بفنون صنع العشق الجسمانيّ الخالص، واستثارتها لكوامن جسمي وخفاياه التي لم أكن أعرف مدى لطفها ودقّتها، على أنّني عرفت معها ـ في تقلّب غمرات الاستكشاف والمغامرة ـ كيف أستنفر مناعمها هي، بعد أن أبلاها ربّما، أو على الأقل ثلّمها، طول ممارسة الصنعة الروتينيّة.

وحكت لي، فيما بعد، عن قصّة جارتها التي تحت، ضمن حكاياتها الكثيرة، فقد كانت إرهاصاً مبكراً بشهرزاد الأخرى، قالت:

ـ سكينـة. كلّ النـاس تقول لهـا سـوسـو. مليئة جـدّاً، سمراء جدّاً. زوجها سائق تـاكسي معتبر، من أولاد الحتّة، عندنا من كوم الناضورة.

طلعت لي فـوق هنـا، يجي من شهـرين ثـلاثـة، في نصّ الليل، تبكي بالدموع السخنة. قل الحمد لله ما كانش عندي رجّاله يعني. قال يا دار ما دخلك شرّ، مالك يا عيني مـالك يا سوسو يا ضناي؟ قالت حودة ضربني علقة سخنـة، حودة زوجها، اسم الله على مقامك، طيِّب ليه.

قالت لي:

جايب لي ياختي قـال إيه بـدلِة رقص، بـالترتـر، شفتني محـزقة يـاختي كانت حتتفـزر مني، وقـال إيـه قـال ارقصي. ارقصي يا وليّة، ارقصي لي بيها. الله يرضيـك، الله يهديـك ياخويا، طب تيجي إزّاي؟ قال على عينك يا تاجر، آدي الله وآدي حكمتـه، تـدخـل فِيّ إزاي دي؟ قـال لازمـاً ولا بـدّ ترقصي لي. بابني كـان شارب لـه كاسـين طافيـا ولاّ هباب. والله مـانا عـارفه. قلت مـا ينفعش يـا حـودة، مـا يجيش يـا حودة، مانت شايف أهه هوّنا حقـول لأ ليه بس؟ مش نـافع يـا حبيبي. هيّ كلمـة مـا تنيتهـاش، وفـين يـوجعـك، مـا خـلاّش. راح نـازل فِيّ تسفيـخ، بـالقـلام، بـالشـلاليت، باللكميّات، تقوليش ياختي راكبه ستّين عفـريت، لمّا طفّحني الكوتة بعيد عنّك. وعن السـامعين.

قـالت له إنّ سـوسو بعـد ما نـزلت من عندهـا على وشّ الفجـر،

راحت للبوليس، وكتبت المحضر والذي منه، وحوّلوا زوجها للنيابة، والنيابة حوّلته للمحكمة.

قالت: وعنها يا سيدي. القاضي قال: «براءة».

طيّب ليه؟ قال لأنّه ما تعقلش، كده بالعقل مش ممكن فيه راجل يقول لست زيّ دي ـ اسم الله على مقامك ـ ترقص له، وإيه في بدلة رقص كده. يبقى ما حصلش. يبقى بتتبلّى عليه. القاضي قال لها يا ست مش ممكن. اتهامك كاذب. هو ده برضه جسم يترقص بيه! أي وحياة النبي قال! يا خويا.. يا ما في الحبس مظاليم!

وعنها يا سيدي واتصالحوا، سوسو وحوده، في قلب المحكمة، قدّام القاضي. قال لهم صافي يا لبن؟ قالت والنبي على قلبي زيّ العسل!

كأنّها لم تغرق تماماً في لحم جسمها. ذهبت إليه طافية على غمر هذا الجسد.

فكأن جسمها سوف تترقرق على سطحه مياه بحر غير مرئيّة.

سكبت نفسي على جوارحها الناعمة.

سوف أقول: عينان كأنّهما زهرتان منوّرتان صافيتان على ماء اللوتس الذهبيّ.

عبق ماء البحر الملح، نفث سمك ذفره يتضوّع.

الصَدَفة التي رأيتها، ذات حلم، ورديّة اللحم، داكنة، حجريّة اللزوجة، متماسكة وطريّة، على شاطئ جسمي الرمليّ.

الخضرة اليانعة الظليلة يتفتّق لها ألف باب على حرف اليمّ.

النباتات والزروع حيّة وارفة تشاركنا فعل العشق الحميم.

زروع «السينجونيام» عريضة عالية تظلّلنا، أوراقها عريضة وسميكة اللحم، غامقة من الخارج، وأمّا في باطنها فهي مشجّرة متشرّجة متدرّجة التلوين بالأخضر الفاتح متعدّد القيم، عودها منصوب مستنفر منتفخ بعصارته منبثق من التربة المحصورة، ولن أفرغ من تقليب وجهي على ثدييها المليئتين شفتاي تتمرّغان في الخصوبة الطريّة الداعية المترعة مطواعة ومقاومة معاً، سوف تقول بخفوت، ولذّة، بعتاب خفيف كأنّه استزادة، بأنين كأنّه من المتعة: صدري! اشتعل صدري بالنار من وجهك، صدري اتهرى من ذقنك يا حبيبي، وأمّا زرعة القشطة الهندي فقد امتدّت أصابعها الخضراء المشرشرة، حتّى في غمار النشوة عددتها فوجدتها تسعة، كفوف عريضة لها شرايين داكنة الاخضرار تسري فيها وتتشعّب، استقرّت الأيدي الخضراء رقيقة الحوافّ مهتزّة الأصابع على بطنها الخمران وهي تضغط رأسه بيدها على القبّة الليّنة، برفق، تريد له أن يغوص مع امتدادات النبات الذي جرت فيه الآن رجفات مستقلّة، فيغوص. وأطراف الاسبيديسرا شبه الحديد النباتيّ المصبوب صبّاً بين الجسمين المتلاصقين، نازلة، متكاثفة، مستدقّة الحفافي صلبة الشكل لكنّها هفهافة، شديدة الدكنة، متراكبة الورق.

أسمع هدير المدفع الضخم على السلسلة، في الشاطبي، مرّة واحدة، فيدوي الأفق بصدى مليء مكتوم على حافّة الشفق المصمت.

القمر ساطع على موج متراوح متناوب الزبد، وشبح السفينة بعيد، يسري بلا صوت، كأنما من غير محرّك، من غير بحّارة، من غير بوصلة ولا دفّة، لكنّه كأنما يعرف طريقه.

روح مسكوبة، نازفة، مفتوحة بلا أسوار.
غرابة التماسّ اللصيق الذي لا ينبع عن دخيلة هذه الروح.
عين الجسد المظلم تطلّ على أفق خاص بها، وحدها.

لا أعرف هذا المسّ الحميم، هذا المسيس، هذه اللوثة إلّا بانصباب نبع حنان مكتوم لا اسم له، وإن كان نزراً، وربّما لا ضرورة له. لكن الجسد من غيره لن تقوم له قائمة. حنوّ غير محدّد بل شائع كماء رقراق منساب على الأرض.

سوف تقول له: لا يمكن أن أصنع الحبّ دون قدر من التفاهم والعطف الإنساني.
«العطف الإنساني!» هكذا سوف تقول.

قال لنفسه: أيّ قدر يكفي. أيّ قدر يمكن أن يصنع، أو يوجد الحبّ، بلا تعب، هكذا عفو اللحظة. أليس كذلك؟ أين تعب المحبّة؟

الجسر على موج الماء العميق، يذهب إلى وسط المجرى العريض، وينقطع.

النزوة العاشرة

قصّة عودة

كان المركب يتمايل بي في خضمّ بيوت الجمرك والورديان.

البيوت التي تحملها أمواج السنين، وقد تساقطت بعض أحجارها، نوافذها باهتة الخشب، مخلوعة، مسنودة بالكاد إلى الحيطان القديمة بفجواتها الفاغرة المسدودة بقطع من الكرتون وخشب الأبلكاش، عليه آثار مياه.

ومعي صاحبي الموهوم الذي نلجأ إليه - نحن جنس القصّاصين والرواة - عندما تعوزنا الحيل إلى إيجاده. ومن ثمّ يوجد، حقّاً وفعلاً.

قال لي: لن تستطيع أن تحكي «قصّة عودة».

قلت، ببساطة: لماذا؟

قال: الطابوهات كثيرة، ومن أوّلها هذا الطابو. تريد أن تروي قصّة هذه البنت؟ ألم يكفك ما يشاع عنك؟

قلت: وهل يمكن أن أنسلخ عن جلدي، أو أنزع عنّي حشاي؟ ثمّ إنّني لم أقل ذلك قط. لم أقله. ببساطة إشاعات المقاهي كذب، وهم يعرفون. اأنا قلت: أنا منفيّ فيها؟ أنا الصبّ المولّه بها الذي

كم قلت ـ على الملأ ـ إنّني معجون لحمي بلحمها ودمها؟ أفي هذا يمكن أن توجد مماحكة؟ أو أقاويل؟

هناك عندي هذه الصخور الراسخة في الغمر، وهناك ماء ممتدّ شاسع أمامي، أمشي عليه، باليقين.

ثمّ إنّني يا أخي أتحدّى أيّ أحد أن يقول أين، ومتى؟ قلت هذا الذي يُشاع؟

وهأنذا أقول، «إنّني أنتمي إلى هذا كلّه!» وعلى الفور يصبح هذا كلّه أنا.

قلت: يمكن سميّي، أو خيالي الساري الحيّ، في لحظة شطط أو غضب، قال ما يشبه هذا. لكنّني ـ قطعاً ـ لست هو. وشطحاتي ضاربة في اختراقات أخرى.

لا. لست هو، مهما كانت قرباه منّي.

قال صاحبي: ما أبعدك عنه! وما أقربه منك، في آن.

قلت: لم أقل قط.

قال: أنت؟ أنت تقول أو لا تقول؟ يا أخي من أنت؟ بمجرّد أن تدخل أنت في حكاية ـ سواء كنت أنا الذي أرويها أم أنت، سواء ـ لا تعود أنت أنت. تصبح آخر. ولا علاقة لك عندئذ بمن تسمّيه «أنت» أو على الأقل علاقتك به متقطّعة الوشائج ورثّة الأوصال. وجودك نفسك ـ أيّاً كان ـ يصبح عندئذ معلّقاً، يصبح موضع سؤال. بل أكثر. يصبح مجالاً للافتراع والخلق الجديد، للإيجاد. وليس الافتراء أو الاختلاق، بطبيعة الحال.

قلت: الأكاذيب في هذا العالم صفيقة الوجه جداً. لا تموت بسهولة.

قال صاحبي: ما هكذا عهدتك. أتدافع الآن عن نفسك؟ وتبرّر؟ وتفسّر؟ يا أخي قل يلعن أباهم، ببساطة، واخلص!

قلت: لا. لا أقولها أبداً، دعك من هذا. أنت تضربني في صميم وجودي. ألا تكفي إشاعة الأقاويل؟

قال: نعم. سواء كنت أنا صاحبك الموهوم الذي صنعته صنعاً، أم لم أكن، سواء كنت أنا الذي صنعت نفسي أو لم أكن، فبمجرّد أن ابتُعِثت فإنّني، أنا أيضاً، أصنعك من جديد. أو على الأقلّ - لا يأخذك الغضب يا سيّدي - أشارك في صنعك.

قلت: ها نحن متواطئان في النهاية، وأنت الذي تقرأ حديثنا الآن، أنت الآخر المتعدّد الملتبس الوجه الذي لا أعرف من هو، متواطئٌ مع كلينا. متورّط معي ومع صاحبي الموهوم، شئت أم لم تشأ، لأنّك بدأت تدخل لعبة المتاهة هذه التي لا أوّل لها ولا آخر.

قال صاحبي: ما علينا. هل تستطيع أن تحكي قصّة هذه البنت، الاسكندرانيّة، بنت البلد، أيّاً كان اسمها، وأيّاً كان منبعها ومصبّها. هي من هذه الأرض. إليها تعود. من بين ناس هذه الأرض. هي بشخصها ومقوّماتها المحدَّدة. ليست تجريداً ولا تعمياً ولا شفرة ولا رمزاً. لا شيء. هي فقط البنت التي قلت إنّك عرفتها - هل أحببتها أيضاً؟ - هل تستطيع أن تحكي؟

عرفت هيلين موسى، ولعلّني أحببتها، وكانت طفلة، عندما كنّا

نزور خالي فهيم في شارع جانبيّ، غير مرصوف تحفّه الأشجار العتيقة الضخمة من الجانبين، متفرِّع من شارع الجمرك.

وكانت سرايتهم على قمّة هذا الشارع، عند التقاطع، تجاور الحيط في الحيط بيت خالي - الذي لم يكن خالي على الحقيقة بل قريب أمّي قرابة تعود إلى عائلة جدّتي في شبين الكوم ولم أستطع حتّى الآن أن أتبينّ هذه القرابة على وجه الدقّة، وكنّا نزور خالي فهيم في عيد الملاك ميخائيل، لنهديه «أقراص الملاك» التي تعملها لي أمّي وتدهنها بزيت السيرج وتضغط على العجينة بالخشبة التي فيها رسم صليب وكتابة بالحروف القبطيّة، وعندما تخرج من الفرن، هشّة، مقرمشة، فوّاحة، محفورة بالرسم والحروف الغائرة في لحمها، عندئذ أعرف حقّاً العيد، عيدي الخاصّ، ولست أنا مع ذلك ميخائيل لا على وجه الدقّة ولا - حتّى - على وجه التقريب.

كانت سراي آل موسى تقوم، بمهابة ومناعة، وراء سور حديديٍّ عالٍ مشغول تنتهي عيدانه الرفيعة المدوَّرة بسهام مدبّبة مذهّبة، ويحفّها النخيل السلطانيّ الشامخ.

كنت أراها عندما نذهب لخالي فهيم بعد الظهريات تلعب بكرة كبيرة وتنط بمرح، ضفيرتاها الطويلتان تتماوجان على ظهر فستانها القصير الذي يكشف عن ساقيها الرفيعتين السمراوين، تحت نظرات - ورقابة - مربّيتها التي تصوّرتها نمسويّة مثلاً، في اليونيفورم الأزرق الفاتح والكاب الصغير على شعرها المعقوص وراء مؤخّرة رأسها على شكل كعكة. فهل هذه صورة من الذاكرة المراوغة؟ أم صورة من فيلم من نوع «صوت الموسيقى»؟ هل أكرّر الاكليشيهات المصنوعة

التي تـطبعها عـلى أرواحنا شركـات هوليـوود المتسلّلة؟ أم أنّي أحتفظ بقسمات حيّة تومض في ليل الصبا البائد الذي لم ينقض قطّ؟

حكت لي ـ عند عودتها ـ بعد ذلـك بسنوات ـ أنّ أبـاها كـان على علاقة وثيقة بالرسّامين الاسكندرانيّة، على أيّامه: أنجلوبـولو، كليـا بـادارو، أرستيد بـابا جـورج، محمود سعيـد، هاجـوب هاجـوبيان، أنــريكـو بــرانـديني، وسيف وأدهم وانــلي، كـما كــان وثيق الصلة بالسيرياليّين والتروتسكيّين القاهريّين: جورج حنين، رمسيس يونان، فؤاد كامل، أبـو خليل لـطفي، إيزاك ليڤي، وجـو شلزنجر، إيـريك دي نيمش. كـرّت الأسماء ع السبحـة، تحفظهـا عن ظهر قلب، كـما تحفظ التمائم والعزائم والرقى. قالت لي إنّ ثـروتهم التي صنعها أبـوه وجدّه من تصديـر القطن كـانت قد راحت في البـورصة، لكن بقيت السراي التي بنيت من أوائـل القرن، جنب الشغـل القـديم الـذي لم تعـد لهم به صلة، وأنّـه كـان يشتغـل عنـدئـذ في «البشـير» اليـوميّـة والبورص أجيبسيين في الوقت نفسه، يكدح في الترجمـة للعربيّـة ومنها تلغرافات هافاس ورويتر ومقالات الطان وبوبولو ديتـاليا، وإيكـو دي سوار، والتعليق عليها وكان يحرّر صفحـة ثقافيّـة أدبيّة أسبـوعيّة ينشر فيها قصائد للنشّار ومقالات لأنطوان داغر وفي وزارة صدقي الأخـيرة صودرت «البـشير» عدّة مرّات، مع «الجماهير» و«صوت الأمّة».

لكنّي لم أعرفه عـلى وجه التحـديد من بـين جموع المعتقلين معي في ١٥ مـايـو في أبـوقـير، لا شـكّ أنّي رأيتـه لم أعـرفـه وسط جمـاعـات المـاركسيّين من كـلّ جنس ولون من الأرمن والجـريـج إلى المصـريّـين الأقحاح، وكشّافة المابـاي، وشباب صهيـون واليوغـوسلاف الهـاربين

من حكم تيتو، والروس البيض. قالت لي إنّه أفـرج عنه بعـد بعـد شهور قلائل بعد أن رفض السفر والترحيل إلى الخارج من المعتقل مباشرة، ثمّ اعتقله عبـد النّاصر مـرّة أخرى في ١٩٥٦ ومـرّة أخـرى رفض أن يوقّع على كلّ أنـواع الالتماسـات والتنازلات والتعهّـدات، حتّى رُحّل بالقوّة الجبريّة ونُقل من المعتقل إلى البـاخرة «الجـزائر» التي حـطّته في مـرسيليـا حيث منحـه الفـرنسيّـون اللجـوء السيـاسيّ، ثمّ الجنسيّـة الفرنسيّة.

قالت هيلين إنّه عندما نزل إلى رصيف مارسيليا قال لها إنّه لم يـره من وراء سحـابة الـدمـوع التي لم يملك أن يحبسهـا، وأنّـه بكى مـرّة أخـرى عندمـا تلقّى جواز سفـره الفرنسيّ، قـال لها إنّـه عندئـذ فقط عرف المنفى والانتزاع عنوة من أرض الوطن.

هـل هذا مشهـد مؤثّر متـوقّع ومنتـظر في هـذا السيـاق - إن كـان «مؤثّراً» من الأصل؟ أم أنّه قد حدث بالفعل؟

قلت: ما دمت أحكيه فقد حدث، بالفعل.

قالت لي إنّ أمّها - وهي كاثوليكيّة مصرية شاميّة من عائلة مجدلاني العريقة أخذتها وأختها الكبرى وسافرت إلى فرنسا، وأنّها كانت تسافر وتجيء إلى مصر بدون مشاكل. قالت لي هيلين إنّها أوشكت أن تنسى العربي، وأوشكت أن تنمو، وتتكوّن، فرنسيّة المزاج والثقافة واللغة.

أوشكت، فقط:

ظللتُ - قالت - مصريّة، بنت بلد، في عمقٍ منّي، حتّى النخاع.

عندما رأيتها - بعد كـلّ تلك الحكايـة يمكن بعشرين سنة - كـانت

ماتزال بنت بلد حقيقيّة فعلاً. سمرتها الداكنة وشعرها الأسود الحالك ووجهها المسمسم وعيناها العميقتان تعطيني حسّاً مصرياً خاصّاً لا يتأتّى عن هذه القسمات وحدها بل عن شيء آخر، روح أخرى، وراءها.

وكانت تتوجّس قليلاً من الكلام لأنّها كانت شديدة الوعي بلكنتها الفرنسيّة. كانت قد تعلّمت العربيّة الفصحى، من جديد، في فرنسا وفي دمشق، وجازت امتحانات الليسانس فيها، ولكنّها كانت أحياناً تبحث عن الكلمة التي تريدها - وتعرفها - بالعاميّة المصريّة، فتجدها، بعد لحظة، أو تضيع منها.

وكان ثدياها الصغيران ينسكبان، بحريّة، من ثوبها الواسع الفضفاض، عندما تنحني ثمّ تعتدل على الفور كأنّها أحسّت أنّ هذا لا يصحّ أن يحدث، هنا. وعندما تنحسر ملابسها عن ساقين طويلتين - مازالتا رفيعتين ولكنّهما امتلأتا الآن بشباب الأنوثة غير المتورّع وغير المكبوت - كانت تسارع بتغطيتهما، بحركة مألوفة عند معظم البنات المصريّات.

وكانت تعرف من الشعر الجاهليّ، وشعر صدر الإسلام ما لا يعرفه - في الغالب - معظم أهل الاختصاص.

قالت لي: لم أترك قطّ هذه الأرض، ولا لحظة واحدة. بعد أن ارغمت على مغادرتها، هأنذا قد اخترتها، بمحض إرادتي، وجئت إليها. كما لا يُتاح لأهلها - ربّما - أن يختاروها وأن يسعوا إليها. لأنّكم تقبلونها، مسلماً بها، أو حتّى مفروضة بطبيعة الحال.

قال: في عودتها مجابهة. بل مصادمة. هي في الآن نفسه ارتطام العشق وتلطّمه.

قال لها: اسمعي يا هيلين، أعرف أنّك غير متديّنة، جدّاً على الأقل.

قاطعته: غير متديّنة، فقط؟ الدين يا حبيبي لا علاقة له بهذا كلّه. ليست لي ثمّ عقيدة دينيّة مغلقة، محكمة، حاكمة. عقائدي - إن كان ثمت - ربّما تقوم في مجال آخر. وهي دائماً موضع سؤال على كلّ حال.

قال: نعم يا هيلين، أعرف. أعرف هذا تماماً يا حبيبتي.

فأدركت وهي تنظر إليه متفكّرة، تتأمّله بتمعّن: أنت أيضاً. أنت شديد الحسّ بأسئلة الدين وهمومه. أظنّ أنّك غير مؤمن، على طريقتك.

قال: نكراني إيمان.

يبدو جيدها المستوي الناعم، بلاط حمّام داكن السمرة، من فتحة العنق الواسعة في فستانها الكاكي، على آخر موضة، وفي حماستها في الكلام تنزلق الفتحة قليلاً عن كتفها الملساء ويبدو شريط السوتيان باللون الكاكي اللمّيع، لدونة الكتف الملفوفة الصلبة معاً تبدو له نباتاً استوائيّاً غضّاً ينمو على عظام هيكل متماسك مغلّف ومدفون في طوايا جسدانيّة نضرة وقويّة.

أكمل ما كان بسبيله أن يقول في البداية: ولكنّكم كلّكم، في نهاية التحليل، منحازون إلى جانب هذه التي تسمّونها «الأرض الموعودة»

وخاصّة في الملمّات والأزمات، وكأنّما على الرغم منكم.

قالت، بغضب حقيقي: لا تضعني أبداً في مجموع، لا تجعل منّي أبداً رقماً، ونكرة، ووحدة في تعميم. أنا هي أنا، فقط. قالت: كاترين أختي ذهبت، وأقامت ثلاثة أشهر في كيبوتز في النقب. كاترين قالت: «المستقبل هناك، والحريّة، والإنجاز». كاترين قالت: «وفوق ذلك هناك الحصن، والملاذ الأخير من الاضطهاد».

قالت هيلين:

قلت لها: لا.

قلت لها: «بل نحن الذين نجلب لأنفسنا الاضطهاد»..

قالت لي: «لا تكن يا حبيبي أنت أيضاً عنصريّاً مضادّاً. لكن تلك الأرض الموعودة غصب وعدوان، أيّاً كانت دعاوى الأعراق القبليّة التوراتيّة أو التاريخيّة المدفوع بها إلى ساحة التعلّل والحجج. تلك «الأرض الموعودة» مسخ وتشويه وطغمة عسكر تحت أقنعة ديمقراطيّة تظلّ أقنعة، مهما كانت. لا علاقة لها حقّاً بالناس.

ثمّ ألحقت وهي تضع رأسها على صدره: أنت تعرف معنى الاضطهاد.

قال: لا. لا أعرفه.

قالت وهو يربت على شعرها، بغياب: صحيح. أنت تحمل أرضك في دمك، أوّلاً، ثمّ أنت بعد ذلك اخترتها. أنا وافدة. جدودي جاؤوا إلى هنا، من اسبانيا، من تركيا العثمانيّة، لكنّي أنا اعتنقتها، طواعية، ألقيت نفسي في حضنها.

قال: في هذه القصّة كلّها رومانسيّة ضروريّة، قاسية، صلبة.

قال لها: كنت أراكِ تلعبين بكرة كبيرة في حديقة بيتكم في الجمرك، من وراء السور الحديديّ ذي الأطراف المذهّبة، و«ناني» ترقبك بصرامة. هل كانت نمسويّة؟

قالت: لا أذكر. لا أذكر هذه الحكاية كلّها إلاّ بغموض شديد.

كنت أعرف أنَّ هذه السراية، هذه الحديقة، هذه المربّية، أرض المنصورة التي كانت لأمّها، ومحلج القطن في العزبة الذي أمّمه عبد النّاصر، محفورة كلّها في روحها.

كان هناك عسكري الحرس، يبدو نحيلاً وداكناً في اللبس العسكريِ الكاكي، بالشورت الذي يصل إلى الركبتين، يقف بمدفعه الرشّاش القصير على كلِّ ركن من أركان السلك الشائك المزدوج الذي يحيط بنا. النور الكشّاف القوي يطوف ببطء على السياج تدور بقعته المستديرة الساطعة دورة متمهّلة متربّصة.

قال: أهذه ـ كتلك ـ صورة من أفلام الأربعينيات عن معتقلات النازي؟ أهذا مشهد من صنع هوليوود أيضاً؟ هل تلعب بي الذاكرة لعبها المعتاد؟

قال: لا. هذا العسكري الأسمر بالشورت الكاكي والبدلة المتهدِّلة نوعاً ما، ولفّات الألشين الخشنة الرماديّة تلفّ ساقيه الرفيعتين ليس من الجنس الآري، ولا هو يابانيّ تحرِّكه وطنيّة أتوماتيّة مبرمجة عمياء ـ كأنّه كائن آليّ من كوكب آخر ـ بل هو من أبناء بلدنا. هذه صورة تظلّ ـ وحدها ـ باقية. ليست كاملة السواد ولا أحاديّة النغمة، ليست من أفلام هوليوود.

قال: كنت لا أحبّ الخروج بالليل من العنبر المرصوص على الجانبين بالسرر النقّالي، مفروش عليها مراتب قشّ، والبطاطين الميري، وأصوات أنفاس النائمين المثقلة جسومهم وأرواحهم، الشخير المجهد وأنين الحبس الذي لا يسمح له بالخروج من باطن القلب، ملفوفين بالملاءات البيضاء ـ غير النظيفة كلّ النظافة ـ أو الملوّنة، التي طلبوها من بيوتهم، وبجانبهم صناديق الشاي أو المربّى، خشب أو كرتون، تقوم مقام الكومودينو، موضوعة بعناية في فسحة الممرّ الضيّق بين كلّ سرير وآخر، تحت المصابيح العارية المطفأة الآن والسلك الكهربائي المتدلّي المأخوذ بمهارة من الفيشة الرئيسيّة، وعليها كتبهم ومجلّاتهم المختومة بتصريح الدخول من قومندان المعتقل، وفيها علب الأكل المحفوظ.. لبن نستله مركّز مُحَلّى، وبرطمانات المربّى والبنّ والشاي والأباريق والكسرولّات والأطباق الصينيّ أو الصفيح والاسبرياتة وزجاجة الاسبرتو والفناجين أو الأكواب وسائر عدّة الحياة في الحبس.

لكن إذا ضاق بي خناق الحبسة، والزمتة، في بعض الليالي، غامرت بالخروج من ثقل العنبر ووخامة نومه إلى الفناء الرمل بين العنابر ـ نسمّيها «الحزاءات» ـ وأعب الهواء الليلي المبلّل برطوبة البحر القريب ووعد الحرية المراوِغة، وتجيئني على الفور صيحات الحرس: «مين هناك!» لتنبئني وتنذرني.

فأمشي ببطء، واضحاً، من غير مناعة، لا أقترب من السلك الشائك، وأنظر إلى سماء «أبو قير» التي «أحسّها محصورة، مزدحمة بالنجوم، ليس لي منها إلّا قطعة مُجتزأة ومُنتزعة عنوة، بينما هي فوقي

شاسعة حتى البحر الذي لا منال له.

قال: هناك، وفي ذلك الزمان لم يكن يفرّقنا إلا الولاء لفكرٍ ما. فقط، أي أنّنا - جميعاً - كنّا نقبل الانضواء تحت رايات العقل والحوار. أي نعم، كانت رايات، مختلفة الألوان ومتنوعة النسيج، وليس مجرَّد شعارات مصبوبة، كنّا نعرف - بل نرحّب بالاختلاف ونحكمه بالنَسَق، وإنْ كان فينا من خرج عن النسق: الاخوان والصهاينة، فقط.

قالت له: الآن هناك المذابح في الغيطان. الضرب بالسِنَج والجنازير والمطاوي قرن الغزال.. الإلقاء من النوافذ عنوة أو هرباً من تعذيب غير محسوب. الدخول بالرشاشات، وإطلاقها على أهداف محدَّدة أو عشوائية لا فرق، في العيادة والمدرسة والصيدلية. هناك هذا الآن، أليس كذلك؟

قال: نعم هناك هذا. ولكن ضد مَنْ؟ ضدنا كلّنا، دون اعتبار لأيّة تفرقة، أساساً على الأقل.

قال: لن يسقط هذا الوطن في غيبوبة الظلام، ولا غياباته.

قال: هذا إيمان عميق.

قالت: ربنا يسمع منك!

أمّا هو، في شيخوخته، فقد ضمّها إلى صدره، حانياً، وعطوفاً، وعندما استيقظ وجدها تأتيه من يقظتها - هي البِكْر، تلبس الروب دي شامبر الرجالي الأبيض الذي خلعه قبل أن يأوي لنومه المضطرب، مفتوحاً على الكومبنيزون اللَبَني الممزق من الجنب وفيه

آثار حروق السجاير المستديرة بحوافها السوداء المشرشرة. كانت حارّة، ومَتَاعاً، وحُرّة إلى الآخِر.

قبّلته على فمه بشفتين كبيرتين حافلتين بالرضى والتطلّب الجديد معاً.

كانت في عينيها نظرة أقرب إلى الولاء منها إلى الشهوة، أقرب إلى العرفان منها إلى الغرام، أقرب إلى نظرة بنت ترفع روحها - وجسدها - قرباناً لبديل الأب لا نظرة العاشقة الصنو على قدم النديّة في فعل عشق خالص صراح.

كانت طفلة عَبوساً غَضوباً صعبة، تخطف الكرة من أيدي الأطفال أقربائها أو زملائها، ولا تردّها ولا تبكي بل تعاند.

دهشت قليلاً - وسعدت قليلاً - عندما قالت لي إنّ أباها كان يأخذها - هي أيضاً - مع أختها الكبرى كاترين، إلى المكس. كانوا يقضون اليوم في الكازينو نفسه الذي كان يأخذني إليه خالي ناثان، ربّما قبل ذلك بسنوات قليلة، ذكّرتْه - وهل ينسى؟ - بالنوافذ الزجاجيّة المربّعة الكثيرة المطلّة مباشرة على موج البحر الصخريّ المزبد. قالت إنّ زجاج النوافذ هذه كان يسحرها، سميكاً مضلّعاً حوافه مصقولة ترقّ وتخفّ عند الأركان الخشبيّة الأربعة حتّى يمكن أن تدخل في الحزوز القنوات المحفورة لها في الخشب، وقالت إنّ أباها كان يشوي البوري والمياس والجمبري في الفرن القريب، يمسح لحم السمك الطري بالزيت ويلفّه في ورق زبدة بعد أن يتبّله بالبصل والملح والفلفل طبعاً والليمون والزعتر وورق الغار الذي كان قد أتى به معه من البيت، وأن السمك كان يخرج من الفرن طريّاً وشهيّاً، تحت جلد

قشرتـه التي كانت تقبّ وحـدها سهلة الانسـلاخ، كان لحم السمـك أبيض خفيف الاحمرار يشرّ بدسمه الطبيعيّ. فوّاح.

ضحكتُ للذّة الذكرى، ولذكرى اللذّة البائدة.

قلت: هل نحن شركاء في جريمة واحدة؟

قـالت: لا. ليست الحياة جريمـة. ليسـت الحيـاة في هـذه الأرض جريمة، على العكس تماماً. ومهما شابها أو تحيّفها، فهي نعمة.

قلت: وشركتنـا ـ عـلى أيّـة حـال ـ مختلفـة المصـدر، مغـايـرة في الجوهر. ولكنّها تصبّ في حضن واحد.

كـانت تفوح من جلدهـا رائحة البنّ المحـروق وربّمـا فـوح العنـبر الخام.

وكانت يداه تحضنان ثدييهـا الصغيرين المـطواعين، وشغب الهـوى يرجّ روحه، لكن تفكيره صاف.

قال: هناك هوّة المضمون الطبقيّ، طبعاً. وهوّة الدم.

قالت: لا تقل «الـدم». هذه أقـوال عنصريّـة غير جـديرة بـك يا حبيبي. لولا أنّني أعرفـك، في صميمك، لقـطعتك أنت أيضـاً عنّي. أعرف أيّها القبطي العريق أنّ نفسـك مضيئة.

قـال، بعنف: لا تقولي أبـداً «قبطي» لست ـ بهـذا المعنى ـ قبطيـاً أبداً. لا أنسلخ عن جلدي، هذا بديهي. لا علاقة لذلك بأنّني لست بطرس ـ كم أنكرت وكم أنكر، صياح الـديك متكـرّر. لا، بل لأنّ هذا تحديد وتضييق وحصر، لا معنى له. ويفوح أيضاً برائحة خفيفـة من الـطائفيّة. قـولي مصري عـربي نعم. قبـطي يعني فقط مصري.

روحي ولحمي معجون بلحم هذه الثقافة كلّها مصرية عربية إسلاميّة. أفي هذا تَفَيْقُه شديد؟ أبداً. هو البساطة بعينها، هو البداهة. فلماذا نعود للبديهيات دائماً؟

قالت: المهم هو الاختيار. اسألني أنا. ليس القَدَر مهمّاً، هنا، ولا مصادفة الميلاد. والاختيار تفكير وتدبير، وجهد وإعداد: ليس إلهاماً ولا فطرة ولا نازعاً غريزياً فقط. الاختيار بناء صعب، مثل الديمقراطيّة، مثل السعادة، مثل الحبّ، أقلّها نعمة من السماء وأكثرها عمل وجهد.

قال: هانحن في قلب ساحة الطابو: الحلم «القومي»، تحقق النبوّات الإلّهية، وعودة المسيح أو المسيا، ولو بعد ألف عام. على أي أرض يُصنع المستقبل، على أي تاريخ يقوم بناؤه. حضن الوطن هو حضن أوديبيّ بحت، أم عمل دؤوب واعٍ وحُرّ.

قال: وتكسير الأطراف، وسرقة الروح، والرمي في معتقلات الصحراء عندكم، الممارسات العنصريّة البشعة حقاً، تحت قناع الديمقراطيّة، من غير أي تعميمٍ هنا، أو تجريد، بل في اللحم البشري الممزّق وفي الروح المنتهَك بلا تورُّع.

قاطعته: قلت لك لا تقل «عندكم» لا صلة لي بهم، لست أدخل تحت أي عناوين مجرَّدة وشاملة وغير إنسانية.

فانحنى عليها، قبّلها في شعرها وقال:

ـ وهناك أيضاً هوّة العمر. حفرة السنين التي لا عبور لها.

فقبّلته بدورها على فمه لتسكته، فليس من ضرورةٍ - هنا - للجدل.

وعلى أنّي عرفت هيلين وأحببتها بشكلٍ ما فلم أكن أنا الذي قلت لها ذلك كلّه، أو بعضه، ولا هي قالت لي. ولا دار بيننا هذا المشهد الجميل، ولا شيءٌ منه.

كان العشق محظوراً ولا مجال له، يوشك أن يكون إثماً بالمحارم، هذه اللوليتا لم تكن لي، أصلاً، ولم يكن لي أن أعشقها. وكانت هذه المسائل والمشاكل أصعب من هذا وأعوص، وربما كانت أرضاً حراماً لا يدري أيّنا فيم - ومتى - تتفجر ألغامها، وبمن تُودي.

قلت: شيء واحد مؤكّد: قدرة مصر اللاّنهائيّة على صهر كلّ شيء فيها، تحويل كلّ شيء: وافداً إليها عادياً عليها أو لائذاً بها، سواء - كلّ شيء - إلى روحها الخاص، إلى تبرها الخاص. وليست مصر تجريداً ولا أغنية في التليفزيون. بل شعبها وناسها، يكدحون ويحبُّون وعلى الرغم من كلّ شيء يضحكون، وأصحاب نكتة، ويعرفون قيمة الحياة، فقط الحياة، دعك من المتعة أيضاً وأساساً بالحياة.

قال لي صاحبي الموهوم الذي يُبتعث لي فجأة، على غير انتظار:

- وهل هنا مجال إعلان الإيمان هذا؟ ألا تحكي حكاية؟ ولرواية القصص أصول ليس منها هذا البيان؟

قلت: لا أرتدّ عنه، هذا أصرّ عليه، أيّاً كانت القواعد والأصول.

قال: أهذا إذن كلّ شيء؟ ليس فيه شيء كثير. . ! أين الطابو؟

وكان المركب، شراعه مطويّ ملفوف بالحبل القويّ على الصاري،

يتمايل مع الموج بين حيطان الأنفوشي وحارات الجمرك. وستّات الأنفوشي يخرجن إلى النوافذ، ويجدن أنّ البيوت في خضمّ البحر، تمخر العباب، ثابتة مع ذلك. وتدقّ الأيادي البضّة الملفوفة بغوايش الحنش الذهب على صدور مليئة، وتفتفة سريعة بين الثديين، لطمأنة القلب المرفرف: ياختي، بسم الله الرحمن الرحيم، الشرّ برّه وبعيد. هو حِلم ولا عِلم؟

فهل كنت أعود على مركب الليل إلى حضن نوت الواسع اللدن، أخوض غمرات الشوارع التي أعرف أن ليس لي غيرها، وأعرف أنّها لا تغرقني.

النزوة الحادية عشرة

سوق المسلّة

«أمرّ على الديار، ديار ليلى. . .»

فهل تنكرني الديار أم يستخفّى بي عرفانها؟

سماؤها بلون الكوبالت الأزرق العميق في الغسق. لماذا يسحرني لون الغسق؟

أنذير الغياب والفقدان؟

أم نعومة التسليم لضياع الجسد الوشيك؟

أسمع سعف النخيل السلطانيّ على جانبيْ محطّة الرمل القديمة، يهفهف. مازالت تخايلني حتّى الآن، هذه المحطّة القديمة، وكشك ناظر المحطّة الخشبيّ المسقوف بالقرميد الأحمر الداكن، فيه دفء كفاءة مفقودة، واحترام الدقّة التي ولّى زمانها.

أجلس في «كازابلانكا» في الدور الثاني، وراء النافذة الزجاجيّة العريضة. الغيم في سماء الصبح البدري ينزلق فوق البحر البعيد. أأنتظر بقلب واجف أن تعبر ليلاي، نعمتي، بهذه الديار؟

ليلاي صغيرة الجسد، موسيقيّة الخطو، مرهفة الخصر حتى تكاد تطوّقها أصابع يديّ، فستانها الأصفر الفاتح فريد في لونه ونسيجه

وفي أناقه انسيابه على القدّ الرشيق البضّ معاً، ينوس على الساقين بسمانيتها الممتلئتين، كاملتين في دقّة سحبتهما، كاملتين في دوران خرطتها، إيقاع مشيتها عندئذ يتردّد الآن في ساحة روحي التي أظنّها قاحلة خاوية حيناً، وأراها حيناً مزدحمة مثقلة بكراكيب الذكريات وأنقاض السنين.

أما زلت أنتظر عبورها؟

وهي المقيمة.

لست واثقاً أنّني سوف أرى الآن من تعزّ رؤيتهنّ، بل تستحيل.

بل أعرف أنّ ذلك لن يحدث.

أهذه شذرات ممزّقة أسمع حفيفها من الداخل ولا أرى لها أثراً؟

مادلين، وميريام، بشعرهما المنسدل الطويل، متطابقتين تقريباً في مشيتهما شبه الآليّة التي تثير الجسم. ستيفو ذات الثديين الهائلين التي كان يحبّها فريد اسكاروس وظلّ يذكرها في المعتقل وهو يمصّ سيجارته الأبديّة بين شفتيه الطويلتين الشهوانيّتين. نيتسا تافانيوتيس ملفوفة في ثيابها المحبوكة دوماً، أنيقة مفصّلة الأوصال ولدنة ولها مهابة الطول الممشوق والجدّيّة الخالصة والأنوثة الموضوعة تحت تحكّم عقل دقيق الحسابات. ثمّ أرتميس ـ آه من إلاهة الصيد الجامحة الفاتنة ـ توقِع بفحول الرجال، هكذا في خطوها، دون اهتمام، دون أن تلقي بالاً.

إيماءات الروح المبدّدة، تسقط أمامها أطلال البوّابات الحجريّة التي لم توصد قطّ، لكنّها لم تكن قد فتحت قطّ.

أهذه ديار مازلت أرتادها، أم لم أعرفها قطّ، ولم تكن؟

وهل خطت رجلاي حقاً على هذه الساحات المظلّلة بوارف الأشواق، أم هي مواقع أضمرها بعد أن حدّدتها الأطياف الأولى، لن تبين، لعلّها لم تقم، لكنّها تعود، لا تتوقّف عن مراودتي ومراوغتي.

أهذه ديار تنفيني، لأنّها هي منتفية؟ أم تتغافل عنّي، عمداً، تستنفرني؟

زاد قديم محفوظ ومع ذلك لا تبلى بكارته، يتقطّر، يغذو النفس العطشى التي مهما رويت تظلّ صادية.

أيّامها، بعد اندلاع الحرب بقليل، وبدء الغارات، كنت أعرف جان جاك روسو، كتبت عن جنّيات وحوريات شيكسبير في «العاصفة» وقرأت عن داروين وجوليان هكسلي، وتغنّيت بأشعار كيتس وشيلي، وعرفت المعلّقات والكامل والعمدة والحماسة، ودرست مستنسخات عن لوحات پنتوريشيو ورافاييل وروبنز. ولكنّي لم أكن أعرف سوق المسلّة.

قالت لي أمّي: تأخذ الترام رقم ٦ من عندنا أمام البيت، يمرّ من راغب باشا حتّى شارع الخديو توفيق، ثمّ النبي دانيال، ويحوّد في السلطان حسين حتّى يدخل على الشارع الذي نرى البحر في آخره، شارع المسلّة، وتنزل في المحطّة التي قبل محطّة الرمل.

لكنّي تهت ـ أو سرحت، لا أعرف ـ وفضلت في الترام حتّى شارع سعيد، ونزلت، وسألت، ورجعت، وعرفت أنّ شارع المسلّة اسمه الآن شارع صفيّة زغلول، وتذكّرت وجه أمّ المصريّين كما كنت أعرف

صورته من المجلات القديمة، الوجه المكتهل الصبوح وديع الأرستقراطيّة، دمث ومترفّع ورزوم.

قالت لي أمّي: قل له صاحب البيت عايز اتْنِين جِنيه ونصّ ريال، أجرة ثلاثة أشهر مكسورة، ضروري تجيب معاك الفلوس، أحسن معاه حكم بالحجز. يا دي الجُرْسة، يا دي الهَتيكة!

كنّا نسكن في شقّة أرضيّة في ٦١ شارع الشيخ خفاجي، راغب باشا، وهي التي أحرقت فيها ثمار صباي تلمُّساً لاحتراق طفولتي وأوجاع مراهقتي. كنت أرى صاحب البيت الأرمنيّ ابن البلد ميشيل دفيسيان الذي يأتي أوّل كلّ شهر، بالبدلة الكاملة المقيّحة والبرنيطة الرخوةالقديمة ولهجته اسكندرانيّة قحّة لا تفرق عنّا ووجهه أسمر طويل ـ أصله جاء من طنطا ـ ولكنّه هذا الصباح كان مكفهراً ضارب البوز.

كنت يومها في إجازة الصيف، ترجمت جزءاً من رواية «السهم الأسود»، كنت يومها أحلم على صورة زوزو حمدي الحكيم في مجلّة «الاثنين» القديمة العدد ٢١١ صيف ١٩٣٧ التي حكى فيها مطرب الملوك والأمراء كيف لحّن «لمّا أنت ناوي تغيب على طول»، وكيف كان المرحوم حسن بك أنور وكيل معهد الموسيقى الملكي يقيم مآدب الفسيخ، والقهوة المعمولة بالسمن البلدي، والتي قالت فيها زوزو شكيب إنّ الضرورة لعبت دورها: «وساقتني إلى نهج الطريق الذي كانت تتوق إليه نفسي»، هكذا، «نهج الطريق» و«تتوق نفسي» بتلك الفصاحة التي أضفاها المحرِّر الفنّي على كلامها. وكانت زوزو حمدي الحكيم ترتدي ثوباً سابغاً لَمِعاً يحبك الجسم المشوق بتفاصيله

المغوية: الثديان الناهدان والخصر الهضيم المسفوط والبطن المكوَّر بأهون تدوير والساقان الملفوفتان. وكان وجهها أسمر التقاطيع صابحاً وغضاً وحيّا ومصريّ الإيحاء، وشعرها الغزير واضح التجعيد وإن كان ملتصقاً برأسها، وذراع واحدة مرفوعة عارية وبضّة وأمّا الذراع الأخرى فيغطّيها جناح الفستان المنسدل على الكتف بانسياب.

وفي ظهر الصفحة المطبوعة - كلّها - بالروتوغرافور المضبوط على لون السيبيا الرماديّ، كنت قد سرحت مع الراقصة سعاد فهمي بفرقة ببا بكازينو مونت كارلو في الشاطبي. وكان الأستاذ محمود تيمور بك مقرِّراً أن يغادر مصر إلى أوروبا يوم أوّل يوليو وأن يسلّم قصّة الفيلم كاملة قبل سفره ليقوم المخرج الكبير محمد كريم بوضع السيناريو، بينما «أبحر إلى بيروت يوم الأحد الماضي مطرب الملوك الأستاذ محمد عبد الوهّاب ليتسلّم بنفسه نيشان الاستحقاق الذي تفضّل فخامة رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة بالإنعام به عليه، وسيعود بمشيئة الله في يوم الثلاثاء كي يرتّب أعماله في مصر قبل أن يبحر إلى أوروبا في منتصف شهر يوليو المقبل».

لماذا أحتفظ حتّى الآن بهذه الأوراق التي اصفرّت الآن ورقّت، فيها هفّات النزوات والأحلام القديمة التي لم تندثر قط، هبّات شهوات الصبا الأوّل وغياباته، خيالات جسدانيّة دائماً؟

من شارع صفيّة زغلول دخلت من ممرّ جانبي صغير جَنْب آخر محطّة قبل محطّة الرمل، إلى سوق المسلّة.

بدهتني روائح السوق النفّاذة الفاحشة: اللحم الأحمر المشبوح

مصقول الجنوب وطريّ والأضلاع المكسورة بالساطور بيضاء حادّة البياض، زبل الطيور الطازج والقديم، نفح الفراخ المتميّز الحرّيف، وكانت الديوك الرومي تقوقئ فجأة بصوت ثاقب مرتفع، سيقانها مربوطة بالأقفاص المستطيلة المصنوعة من جريد النخل الرفيع بقضبانها المتوازية المتقاطعة، بينما ترتفع أعناقها السوداء باللغد الأحمر المترجرج والرؤوس مستدقّة المناقير بشكلها البدائي الموحش، صوصوة الفراخ والكتاكيت البلدي وهديل الحمام وانفلات الأرانب فجأة من طرف إلى طرف في سجن الأقفاص.

السوق يتردّد فيه الصدى، ويتجاوب الكلام والصياح لأنّه عالي السقف وحيطانه مكسوّة بالقيشاني الأبيض النظيف، وجدت الجزّارين في داخل أقفاص زجاجيّة أخرى، تحت اللافتات المكتوبة بخطّ ذهبيّ على أرضيّة المرايا: «تاوضروس وأبناؤه. لحوم خنزير» ورأيت وجه أبي من وراء الزجاج.

كان جالساً إلى مكتب صغير جدّاً تكدّست عليه دفاتر الحسابات الضخمة بورقها السميك الذي يبدو، حينما يغلق الدفتر، مقعّراً إلى الداخل بتقويس منتظم ولونه أزرق خفيف فيه خطّان رفيعان جدّاً بالأحمر.

كان طربوشه مايزال مكويّاً حادّ الكيّة، وجهه الناحل بعظم خدّيه الناتئين. ابتسم لي، بابتسامته العذبة. وكان مندّى بعرق خفيف ولكنّه كان يلبس ملابسه الكاملة: القفطان الحرير السكروتة والبالطو الجبردين. أسند عصاه الأبنوس، ذات المقبض العاجيّ الذي على شكل رأس صقر، إلى المكتب الصغير، وكان يراجع، ويحسب، رصّة

من الأوراق والفواتير وبوالص الشحن وإيصالات بضاعة السكّة الحديد وحسابات تجّار الجملة.

قال لي: ربّنا يسهّل ويعدّلها. الليلة إن شاء الله ع العشا تكون فُرِجت بإذن يسوع، ونجيب الأجرة.

ولفّ لي حتّة كبدة لدنة في ورقة لحمة: قول لستّي وستّ الكلّ تشوّحها وتوضّبها مزّة ع العشا.

كان أيّامها يقضي النهار بعد النهار يلفّ في السوق، من غير شغل، فإذا جاءه الرزق من ربّنا اشتغل، باليوميّة، بحسابات أولئك الجزّارين أو تجّار الطيور والسمن والحبوب والبيض، بلديّاته أو زملائه السابقين من قبل أن يخسر كلّ شيء في الأزمة. بل كان أحياناً يعمل بالساعة، أو بالشغلة المحدَّدة، ليرجع لنا باللقمة، والمصروف. وكان دائماً راضياً ودمثاً، وبشكل أو بآخر يدبّر لنفسه كأس الكونياك أو العرق، والمزّة، يشرب مع أمّي، ويعزم عليّ وعلى أخواتي، أمّا أجرة البيت...

كم تحمّلنا يا أبي - أنت، وأنا فيما بعد - من أجل لقمة العيش، بشرف، حتّى يعيش من نحبّ، فقط يعيشون، ولكن بكرامة.

وكم أنكرت نفسي - فيما بعد - بوهم هذا الشرف وتلك الكرامة التي يظلّ يمتهنها الخنازير.

هذا الوهم الذي لا ثمن له في السوق وربّما لا محلّ له في هذا العالم.

بعد أن صُلِب المسيح، وطُعِن، ورُوي بالخلّ، وأُلبس تاج الشوك

وسخر منه العساكر الرومان وسفلة المتعصِّبين ـ وغفر لهم ـ مَنْ تلك التي تلقَّته بعد أن أُنزل من على خشبة التعذيب؟

المجدليّة؟

أم مريم الأخرى؟

مَنْ تلك التي تمسح ساقيّ المجهدتين بشعرها العطر الغزير؟

«اللّيل مملكة البوم والفئران والنساء».

ضحكات الصبيّنْ الوحشيّة تقريباً، في فناء محطّة مصر الواسع الفارغ الموحش تتردَّد لها أصداء إذ ترتطم بالسقف الزجاجيّ العالي والحيطان النظيفة، الساعة الرابعة وقطار سيدي جابر يدخل على القضبان اللامعة، صفيره يدوّي بمهابة، وترحِّب به صدورنا، ونصعد، ومعنا بنات مدرسة نبويّة موسى الراجعات إلى الرمل، والطلبة يتبعونهنّ بأعين لامعة مكتومة الحيويّة، وهمسات المعاكسة الخافتة المؤدَّبة الحييّة تقريباً.

قال لي شفيق: وَلَهْ.. أنا عايز من ده!

كانت البنت سمراء غضّة ملفوفة وخجولاً، تضمّ الكراريس والكتب إلى نبتة الثديين البرعميّين بحركة بنات المدارس المأثورة المشهورة، ولكن نظرة عينيها الغائرتين فيهما غواية أنثويّة مبكِّرة تطعن الأجسام المتفتّحة على عرامة اليقظة الذكوريّة البكر.

كنّا قد أخذنا كأسينْ من الدندرمة المشكَّلة بالفسدق والشيكولاتة والمستكة ـ الواحد بستة مليم ـ من صندوق الجيلاتي في ساحة فسيحة خالية في شارع صفيّة زغلول، على الرصيف المقابل لسينما ريالتو،

يشغله فتى اجريجى طموح استطاع بعد ذلك أن يستأجر هذه الساحة وأن يقيم عليها «إيليت» ذائع الصيت.

كم دفعتني الوحشة - بعد ذلك بسنين، وربّما حتّى الآن؟ - إلى المقاهي بحثاً عن لحظات رفقة وأنس بالصحاب، إلى الفريسكادور وإيليت وقهوة فرنسا، ولورانتوس والكريستال والتجاريّة وكازابلانكا وباستروديس، وحتّى «قهوة الأشباح» التي كانت - على ضيقها ووعورتها - ساحة مباريات الطاولة أو الكوتشينة بكلّ حموتها وصخبها وضجيج تحدّياتها ووهج انتصاراتها وحبوط هزائمها بين رضوان القفّاص وأحمد قنديل، بين فتوح القفّاص وجمال حشمت الشاعر الرقيق الذي عاش وعلّم سنين طوالاً في الكويت والعراق والذي وصمني بعد ذلك بالفجاجة والسماجة وثقل الدم والذي كان يقول عندئذ: «ما خلاص، بعد سنين تحطّ إيدك لا مؤاخذة على جسم مراتك كأنّك بتحطّ إيدك على جسمك، ما تفرقش، ولا تحسّ حاجة!» أو بينهم أو أيّهم وأيّ من البوّابين والبيّاعين في «أوريكو» الشاهقة التي تكبس على حارة القهوة وتسودها. وأمّا أنا فكنت - ومازلت - لا أعرف أيّة لعبة، ما عدا لعبة الكلمات والمعاني التي ما أشدّ جدّيتها، وكنت أموت، معهم، مللا وضيقاً بنفسي، وأكتم حسّي، كعادتي.

وعلى أيّ حال، فما العلاقة؟

ما العلاقة بين أيّ شيء وآخر، مهما بدا من توثّق الروابط وإحكام الوشائج؟ ومهما كانت هذه الروابط قائمة وهيكليّة؟ ما العلاقة؟

ألا تكفّ عن فلسفة الصفيح هذه؟

أم أنه - في النهاية - ليست كذلك تجري الأمور؟

كـان شفيق راقم بسطوروس، ابن نـاظر محـطّة السكّة الحـديد في صَفْط الملوك الذي يملك قيراطين أو فدّانـين يعني، الله أعلم، والذي كنت أحبّـه كثيراً، يـأخذ معي كـأس الدنـدرمة من الصنـدوق الأحمر اللامع نظافة وأناقة، على الرصيف الآخر أمام سينما ريالتو، وبينما هو يمص العجينة الدسمة الملوّنة المثلوجة، يعبر تقاطع السلطان حسـين، ويـدخل عـلى شارع المسلّة ـ صفيـة زغلول، ويمرّ عـلى فَـرْشـة بـائـع الصحف شِبْـه العميل شبـه الصديق، وكـان الرجـل الكهل الـداكن اللون وسيم المـلامـح بشـاربـه الأبيض المنمّق، يحتفظ لـه ـ من تحت لتحت ـ بمجلات الصور العارية الـلامعة، بـاردة الملمس، وكتـب من نوع «بئر الوحدة» و«اعترافات مومس» و«مذكرات إيفا» مـطبوعـة على ورق أصفر خشن بالعربية ـ مليئة بالأخطاء المطبعيّة، وهو غير مهم! ـ وبالانجليزية مخصوص للعساكر الانجليز والأُستزال والأفـريكانـدرز. كان يحوم حول الفَرْشة عندئذ، ولد حافي القدمين بجلابية نظيفة، هو الـذي أجده الآن، بعـد نصف قـرن، صـورةً طبق الأصـل من أبيـه الشيخ الوسيم داكن السمـرة بشـاربـه الأبيض المنمّق وعينيـه اللتـين تحملان، مثل أبيه، إثم المغامرة داخل المحظور. وكان الرجل صديقاً لجاره حسين أبو الليل، التروتسكّي القديم الذي كان جزمجياً صنـاعياً كـامل الإتقـان لصنعته بـل محبّاً لهـا حتى العشق، وكان يعمـل طـول النهـار حتّى الليل في الحيّـز الضيق المحصور بـين حارة تـوازي شارع صفية زغلول من وراء خلفية محل الأحذية الراقي الـذي تقع واجهتـه الأنيقة على الشارع الكبير.

تطابق الصور. تكرار الصور.

ألا أعرف غير الصور، بالروتوغرافور أو بغيره، صور طبق الأصل، صورٌ خير وأبقى من الأصل. ربما. ولكن أين الأصل؟

الآن والهواء الرطب يضرب وجهي برفق عبر نافذة «ايليت» المفتوحة على نصف قرن من الزمان تمرّ بي تلك المرأة الناريّة، جيبتها البنطلون الواسعة حمراء تحبك ردفيها، بقوة، ثمّ تنزل، فضفاضة، مزهوة متفجرة بلهيبها الحيوانيّ النباتيّ معاً شعرها أحمر مهوّش مرفوع ومشتعل، كأشجار البانسيانا المتأجّجة هنيهة، أياماً ربما، ثمّ تنطفئ.

كانت الثورة قد قامت منذ سنتين، وكنت مع أوديت ولقيت حامد عبدالله مع أحمد، جالسين على الرصيف الواسع المزدحم بالناس والبهجة واللغط الأنيس واسترخاء مساء الصيف، كان ايليت عندئذ مفتوحاً على شارع صفية زغلول. وعزم علينا بإصرار. وأخذنا الجيلاتي المستكة الشهير وقال إنّهم هتفوا بسقوط الديمقراطيّة وسقوط الحرية وقال إنّ هذه البلد ستمرّ بمحنة صعبة وطويلة، قلت نعم ولكن طريق السعي إلى العدل الاجتماعي وطرد الاستعمار طريق وعر ولكن عندك حق، وسكت أحمد، بحكمة، كعادته، وكانت أوديت في التايير الكحلي الأنيق، رشيقة وجافة القدّ تقريباً، عيناها العسليتان فيهما معرفة مسبقة وتكذيب ولمحة مَكْر وخوف وترقّب معاً. صدق حدسها فيما بعد.

وكأنّ الزمن لم يمرّ على الإطلاق.

أمرّ على الديار.

هذا الشوق ذاته، هذا الاضطراب الداخلي، وطيش المغامرة من غير حساب للعواقب، وهذه اللهفة ذاتها.

قبل هذا الرصيف الواسع كنت أمرّ على كشك عبد المنعم الذي كان يشتغل معي في الشركة، وعرفتني به نعمة، وكان يبيع الصحف والمجلات والكتب العربيّة والفرنسيّة بعد الظهر. وكان شكله يشبه الديوك الروميّة - وهو يطلّ بعنقه الطويل من نافذة الكشك، ومنقار في وجهه الشاحب ذي اللغد، وعيناه جاحظتان وحتّى صوته يقوقي أحياناً عند الانفعال أو الاستغراق في البيان والحساب وكنت أشتري منه «المجلّة الفرنسيّة الجديدة» العدد الواحد باثنين وثلاثين قرشاً وروايات فرنسيّة نصف عمر أوريليا لجيرار دي نيرفال وحكاية مانون ليسكو والشيفاليه دي جريّيه للأب بريفو، والجولات الأدبيّة لريمي دي جورمون، المطبوعة في ١٠ يونيو ١٩٠٦ وكنت أدفع حسابي بالتقسيط كلّ شهر عشرين قرشاً عند قبض مرتبي وكان عبد المنعم يقف على باب الخزينة - من الخارج - يرصد العملاء ويستوفي الأقساط، وقرأت في المجلّة الفرنسيّة الجديدة أحاديث لجورج براك وأشعاراً لرينيه شار وشذرات لأنطونين آرتو وقصصاً ليوجين يونيسكو ومذكّرات غير منشورة لمارسيل بروست واستشهاد الحلاّج في بغداد بقلم لوي ماسينيون، ولكتّاب وشعراء كثيرين جرف أسماءهم بحر التاريخ الملتطم.

أمّا رفيق تلك الأيّام الذي صاغ منّي جزءاً لا يضيع أيّاً كانت صروف الأيّام فقد اعتنقت نجواه: «أيّها البحر اللانهائيّ الذي أحالت دموع البشر مياهه العميقة إلى أمواج من مرارة لاذعة. الفيض اللامحدود الذي تصطخب في جزره ومدّه أمواج الموت، أما زلت

جامحاً جائعاً إلى المزيد وقد لفظت الحطام الباقية عن عواطفك إلى ساحل الموت المقفر الماحل؟»

تطعنني - على عكس ما تريد - امرأة نضرة، مخروطة الساقين في الشراب الأسود الشفّاف والحذاء ذي الكعب العالي الرقيق، وهي تقول مرحِّبة ومحتفية بي:

- ماذا يمكنني أن أفعل لكي أجلب لك السرور؟

أبتسم شاكراً وعارفاً أنّه سوف يعزّ عليّ السرور.

وسوف أتنكّر لها.

وإذ يخرج الناس من سينما رويال إلى شارع فؤاد وشارع الكنيسة اليونانيّة وشارع المسلّة متقاربين متماسكين في نعومة الليل الرقيق المندّى كأنّما يخشون شيئاً من عمقه المخوف، يتهامسون، لا يرفعون صوتهم كأنّما يدارون بالهمس روعاً يسقط عليهم من بين أسطح البيوت ومن أبراج الكنيسة ومن سقف السوق المخروطيّ ومن حوافّ السماء، يضحكون بخفوت ويتلمّس الرجال والنساء من دفء أجسامهم عزاءً وقرباً ورفقة في مواجهة هذا الليل الصهُوت، عندئذ كنت يا نجمتي يا نعمتي أفتقدك حتى لا تفدحني جفوة تلك السماء وغربة تلك النجوم يضربني هواء الليل القادم من الميناء الشرقيّة ومن موقف ترام البلد، محطّة الرمل خالية إلاّ من حفيف النخل السلطانيّ على الجانبين والليل ينالني في النهاية، ينال منّي أغواراً مفتوحة كجروح، أمام صخر النجوم وقِفار السماء.

وليس هناك إلاّ طريق اللبانة وشارع الشعرى اليمانيّة وسوق المسلّة، أذرعها قد أصبحتْ شاراتٍ ممزّقة تسبح في الزرقة الصامتة.

النزوة الثانية عشرة

الراس السودا

لن يصدّق أحد.

سيُقال إنّ هذه حيلة أخرى - وقديمة - من حيَل جنس القصّاصين، للإيهام، وحبك التشويق.

أبداً.

ليست هذه النزوة من صنعي على الإطلاق، أو تقريباً على الأقل.

ليس لي أيّ فضل في هذه القصّة - يعني - إلاّ أنّني حرّرت فيها قليلاً، وأعددتها للنشر.

تلقّيت هذه الرسالة كما هي، بالنصّ تقريباً، من هذه التي سوف أسمّيها نايرة، وليس اسمها «الحقيقيّ» ببعيد عن نغمة هذا الاسم.

لم أعرف ماذا أصنع بها، إلاّ أن أنشرها.

صدّقوني

فهل تبقى قصّتها هي، نايرة، بكلّ قوّة تعبيرها وبساطته وبراءته ومفاجآته، أم تصبح قصّتي، أنا، لمجرّد أنّي نشرتها، يعني أضفت إليها صوتاً هو صوت هذا «الأنا» الذي قيل مرّة إنّه مهيمن، ليس في

هذا العالم القصصي غيره، وفي ظنّي أنّه فقط يبوح ويفضي ويشطّ دون تحرّج بقدر ما يستطيع، ويضع نفسه ـ هذا الأنا ـ بين حشد الأشباح والأشياء يغوص ويطفو في يمّها الملتطم، ويحطّ، دون حيلة تقريباً.

أحقّ إذن أنّه ما إن دخل هذا الصوت ـ هذا الأنا ـ إلى هذه القصّة حتّى أصبحت شيئاً آخر؟

لكنّه، هذا الصوت، لا يفعل إلاّ أنّه يقدِّم الحكاية ـ كما أقدِّم الآن، فهل هو أنا؟

هأنذا ـ أو هذا الصوت الذي لا أعرف لمن هو ـ يعطِّل صوتها:

«ولا بكلّ قدراتي في الخيال كان ممكناً في أيّة لحظة أن أتصوّر احتمال أنّني أقع في هذه الكارثة المحكمة بلا منفذ ولا كوّة صغيرة يبدو لي منها ضوء أيّ ضوء.

ولا بكلّ الإمكانيّات المتاحة لي ألقى منطقاً أفهم به هذا الذي يحدث، أدرك به أين الخطأ، أجد به ولو تبريراً واحداً للذي يحدث.

غرقت في الحياة من زمان من زمان. في نفسي وفي الآخرين.

كنت أريد طول الوقت أن أصفو، أصفو من عكارة الآخرين، عكارة الأفكار والأوهام، عكارة الطقوس والقيم وكلّ ما يجعلني ثقيلة، كلّ ما يشدّني إلى تحت. وفي كلّ مرّة كنت أصطدم بتناقضات الآخرين وشرّهم وعجزهم، وعجزي أيضاً. في كلّ مرّة كنت أتعذّب وأطحن وأسحق سحقاً. فقط كنت دائماً أكمل، أكمل الحكاية للآخر. وأخرج الخروج الجميل الصافي القويّ الفاهم أو المحبط التعس الصامت العاجز، سواء. دائماً

كنت أحسّ أنّني مثل ورقة النشّاف في زجاجة حبر. أنا اليد الممسكة بها، وأنا ورقة النشّاف.

عندما كانوا يسألونني وأنا صغيرة: عايزة تطلعي إيه؟

كنت أقول: رقّاصة.

كلّ العيال الآخرين كانوا يقولون أشياء أخرى. فقط أنا دائماً كنت أقول: رقّاصة. طبعاً ضُربت وخُوِّفت وأُرهبت. لكن ظلّ الحلم: «أكون رقّاصة وعندي بدلة رقص».

يوم أن اشتريتها كنت أكلّم نفسي في الشارع، وأضحك وأنا ماشية وحدي: «الشنطة في إيدي، وفيها بدلة الرقص بتاعتي أنا، أنا وطظ في الدنيا كلّها!»

كنت قد حسبت حسابات كثيرة: أن يكون عندي فلوس اشتريها، أين أجد بدلة رقص من أيّام زمان، من النوع البمبة. أن يكون عندي شجاعة وألبسها أمام الناس. أخفيها أين؟ في غرفتي؟ صدّقني لو قلت لك إنّني تعبت، تعبت جدّاً من الرغبة، من الجري وراء أفكاري وأحلامي. وعندما اشتريتها أحسست أنّني إذا لم أصرخ سأنتحر. وجريت إلى أقرب بيت لأحد ممّن أعرفهم ممكن أن أصرخ عنده بكلّ الجنون والسعادة، وأنا أضحك: «أخيراً، بقى عندي بدلة رقص!».

أنا في داخلها، لبستها، ملأنة بالخرز، منسدلة على جسمي. وجسمي فيها جميل، مثل الحلم. أنا مثل الحلم. أكيد كانوا هكذا في الحرملك زمان. ولكن عندي ما لم يكن عندهم، الاختيار والحرّيّة. جسمي في بدلة الرقص طالع من السجّاد العجمي من البلاط الرخام من إبريق فضّة من صوت مياه من تداعيات عود من حرير مُلقى. كلّ ذلك كان في خيالي. فقط كنت دائماً أرى نفسي وحدي في ركن وحدي ألفّ وأدور في بدلتي الملآنة بالخرز

أسمع رشّ صوته ألفَ ألفَ وأرقص في غرفتي وأعدّي، أجتاز كلّ قوانين الأجسام، ألتحم بأقصى ما يمكن بالأصوات والموسيقى، جسمي يعدّي الحدود. أرى نفسي في حدوثه في زمن آخر، ولا يتبقّى إلاّ جنوني، وجسمي في التمام. تام وراقص بالموسيقى، في الوثن.»

كانت نايرة، على ما يبدو من سكونها، بل وانطوائها، عاصفة جامحة من الحسيّة، والانطلاق، والبصيرة الأنثويّة المضيئة.

وجهها أسطوريّ تقريباً مأخوذ من نقش على جدار عمره آلاف السنين مازال غضّاً وحيّاً. هاتان العينان المصريّتان لن تجد مثلهما إلاّ في هذه النقوش واللوحات، وفي الوجوه التي تفجؤك أحياناً في الشارع، في الغيط، في أيّ مكان من هذه الأرض، على غير انتظار، فتهزّك وتقلّب في روحك رواسب الزمن كلّها. عينان مسحوبتان جاحظتان قليلاً جدّاً ومعمورتان بخصب آلاف السنين.

قالت، ببساطة، دون أيّ بذاءة أو تقحّم، لأنّها تقرّر حقّاً أوّليّاً وبديهيّاً لها:

ـ عايزة راجل! عايزة أحبّ!

هل كان علي داود قد أراد أن يرسمها عارية، سمراء، جسمها كلّه يترقرق بموسيقى طلب الحبّ وطلب الرقص؟ الألوان الخضراء والرماديّة الأثيرة إليه ظلمتها، وجنت على هالة روحيّة لا يمكن أن تُنقل إلى صورة أيّاً كانت براعتها، هالة تتجاوز وتفوق كلّ ما يمكن أن تعطيه معاجين الألوان وقماش اللوحات ويد الفنّان الصناع، تطفو

من فـوقها ومن ورائهـا، وتترك التجسيم ـ عـلى كـلّ حـذقـه ـ خشنـاً وجافياً.

«مهما قلت لك إلى أيّ مـدى أحبّ الرقص لن أقـدر أن أصف لك يا أستاذي. في الحقيقة أنا كلّي أختزل في الرقص.

الشيء المهمّ الـذي لم احـب لـه حـسـابـاً كـان الآخـريـن.

الآخرين.

كنت أريـد أن أرقص، فقط. هـو هـذا الـذي كـان في كيـاني فقط.

ولكي أحقّق حلمي للآخر، لآخر خطوة، سافرت! إلى لـوس انجيلوس.

سـاعدني الحظّ، أو أتعسني. رقصت في حفلة فيهـا صفـوة من مفكّرين، وأدباء، وفنّانين، وأساتذة جامعات، مصـريّين وعـرب وأمريكيّين وأوروبيّين أيضاً. صفوة. وكانت مصيبة:

ـ غزالة آتية من الصحراء، من الأهرامات.

ـ تُرى لو نام الواحد معها، فكيف تكون؟

ـ أنت تستطيعين أن تكسبي جيّداً جدّاً هنا. دعيك من البلاهة!

ـ جسمها حلو بتّ الكلب، مهلّبيّة! وملهلبة!

فاهم النظرة يا أستاذي؟ والتلميحات؟

دفنت حلمي ورجعت، بـدلـة الـرقص في كيس دولابي. أن أدفن الحلم خير من أن أبتذله.

الـرقص عنـدي مثـل كـلام ربّنـا. وكلّهم كفرة أولاد كلب. أرقص في غرفتي، وحدي، أحسن!

في الـرقص أرى ربّنا، واكلّمه، وأعطي لـه نفسـي، بكـلّ مـا

حصـل في حياتي، بكـلّ ما عشتـه، بكـلّ الأشيـاء الحلوة والمرّة، والأحداث، والأحلام.

في الـرقص نفسـي من جوّة تتعـرّى العري الجميـل، وتـظهـر، تّضح، تتجلى. كلّ شيء يكون رحباً وواسعاً وحرّاً وبسيطاً.

أظـلّ أروح وأجيء وألفّ وأدور وأتحرك، بـل أجرى. أحسّ بـالتعب، أحسّ جسمي يهلك، أحسّ جسمي يـعـدّي التـعب، ويكمـل، يكتمل في انصهـاره بالمـوسيقى. لحمي هـو المـوسيقى.

كيف لم أكن أطير؟ والله العظيم أنّي في أحيـان كثـيرة أسـأل نفسي هذا السؤال، ويكون ذلك بجدّ واندهاش حقيقي:

ـ إيه ده؟ هوّ أنا لسّه ع الأرض؟

بـاختصار أحسّ، وأرى، وأعيش من منـظور آخـر، في بُعـد آخر، خالص.

كنّا في الراس السودا، بعد فيكتوريا. الغيطان من ناحية، والرمل من نـاحية ينتهي إلى البحـر. والبيـوت الـواطئـة القليلة، بحـدائقهـا الواسعة المزروعة بحبّ ولكن من غير أناقة ولا رهافة، نباتـات الخسّ والجـرجـير والـطماطم والفلفـل البلدي. أشجـار التـين، والنخـــل، وتعريشات العنب من خشب خام غير مدهون متقاطع وداخـل بعضه بعضـاً، عاشق ومعشـوق، تتدلّى عليـه الغصـون المـورقـة والعنـاقيـد المكتظّة المثقلة كأثداء متقاربة وتنزّ باللذّة.

الـراس السودا سـدرة تتوسّـد السـديم، سهـول سينـا وصهـدهـا وصرامـة صروحها، كلّهـا مسدّدة مصـوّبة إلى قلبي انصبـاب صبابتي وأسـر صمتي.

كان حفيف النخل وهدير البحر وخوار الجمل الرابض تحت القمر

رقصتها وطقوس تقديسها. هل أنت أيضاً من عابدات القمر؟

حتّى من قبل أن تولدي يا نايرة بزمان، كنت قد رأيتك، وعرفتك، منذ ما يقترب الآن من نصف قرن بحاله: «في تلك الغلالة الشفّافة جسداً خمريّاً من الموسيقى والزبدة وعجينة الضوء العاري. ترتعش رعشات متطاولة متوتّرة، ثمّ تميل من حرارة السحر البدائي المنبعث عن اللحم الحيّ الحارّ. كان جسدها ورقصتها شيئاً واحداً هو ثدياها المتصبان المرتجفان وأنين رحمها المرتعد المحبوك وانحناءة ظهر طويل ناعم. وركاها يهتزّان كأنّما يخوضان أمواجاً ثقيلة من الرغبة. هذا العري يتقلّب وينطوي على أحشائه يتلمّس في حمى ظلمتها سرّاً، ثمّ يدور ويتمدّد وتتفتّح حناياه المبلّلة كأنّما تستقبل، في رعشة اللذّة، تلك الهجمة المشدودة الفرحة المخصبة».

لكنّك الآن تعرفين، على نحو ما، أكثر ممّا عرفت:

«أنا دائماً غيرهم. لست مثلهم.
دائماً الكرة التي أرميها تجيء «أوت» أو في الغلط. هناك قانوني. وهناك قانونهم. هناك الذي يقولونه. وهناك الذي يفعلونه. وفي معظم الأحوال الأشياء ناقصة ومتقطّعة وملويّة وكاذبة وغير مفهومة عندي».

قلت لها: حيلك يا نايرة. على مهلك شويّة. كلّ السواد ده مرّة واحدة!

«معظم الأحيان تنتهي بصدامات معهم. هم طيّبون، خيّرون، وأنا مثل الزفت! هم يحبّون المال ـ شيء طبيعي ـ وأنا علاقتي بالمال بالضبط مثل علاقتي بالجرائد القديمة.

ألتئم بالليل مع نفسي. وفي الصبح أكون مثل انكسار جغرافيّ في طبقات الأرض.

لهم إلّه مثل «أبو الهول» رابض على كرسيّ فوق، جبّار، منتقم، بالمرصاد، وأمّا أنا فغير ذلك. ربّما عندي محبّ حان غفور وعارف، يحبّني ويفهمني.

ليس هذا فقط. من زمان لا أحبّ كلّ العقائديّين، والمذهبيّين، النّاصريّين والشيوعيّين والمصْرَفَتاتيّين وطبعاً الإخوان المسلمين والجماعات، كلّهم عندهم مشاكل نفسيّة أو غيرها يخفونها بالكلام الكبير، والأقنعة، كلّهم تنقصهم حتّة أمانة عميقة وضروريّة.»

قلت: لا يا نايرة. هنا أنت مخطئة. اسمحي لي. فيهم كلّهم المؤمنون بجدّ وحقّ، أولئك الذين عندهم حكاية المثل والمبادئ حكاية حقيقيّة، والتضحية بالنفس، وحبّ مصر أو حبّ الإنسان الكادح أو حبّ الإنسان المسلم، والعمل أيضاً، الحبّ باعتباره عملاً. بعضهم موهوم، بعضهم ساذج ربّما، ولكن الإيمان الحارّ في أعماقهم، حتّى لو كانوا يخدعون أنفسهم، غير مدركين أنّهم يفعلون ذلك. بعضهم - وخاصّة قياداتهم - كذّاب، ومضلّل، أو مرتزق، صحيح. ولكنّ سوادهم خالص الإيمان وإن مغرّر به أو ساذج.

كنّا في سيناء، الجبال الصارمة جهمة وعرة صخريّة بلا رحمة، الهول الجاثم في شعابها كأنّ نار العلّيقة نار الربّ على أهبة الاندلاع في أيّة لحظة في أيّ مكان، ثمّ واحات الخضرة الخبيئة، والنخيل المتكاثف الحنون.

«أمام هذه الجبال، أمام هذه الأرض في متّسعها الشاسع، أمام هذا البحر، عرفت ربّنا، عرفت نفسي، عرفت أنني في سواد وانحطاط حضاريّ وإنسانيّ.

كم مرّة عيني انكسرت على الجبال، ولم أكمل نظرة واحدة.

كم مرّة أحسست أنّني أريد أن أبكي وألطم وأولول وأشيل التراب وأحطّه على رأسي واجري وأرتمي.

كم مرّة اختشيت من الجبل وقلبي تاه في صدري من متّسع الصحراء، وأحسست أنّني مثل قطعة بلاستيك تافهة ومرميّة على الرمل.»

وملقاة يا نايرة على هذا النصّ نفسه، مغمورة في كتابتك أنت، لا أملك أن أمدَّ لك يداً، أيّ يد.

«وكم مرّة انتشيت.

«وكم مرّة عرفت أنّني في سموٍّ سامق، حضاريّ، وروحيّ معاً الشيء الوحيد الذي أحسست به تماماً أنه فيّ، أنّني سأكمل نظرتي، أنّي لن أخجل من نفسي ولن أنظر إلى تحت، الشيء الوحيد الذي سيشد له عمودي الفقري على استقامته، الذي أملك به أن أردّ به، بشكل أو آخر، على هذه النغمة بدون أيّ تنشيز، وبعمق، ربّما بصوت أخفض، هذا الشيء الوحيد هو أنّني أملك أن أرقص.

الرقص هو ردّي، وتفاعلي، أمام الجبل والبحر والأرض، وكلّ شيء.

الرقص هو حلمي وخيالي وجدّيتي وموضوعيّتي وبحثي الدائم الذي لا ينتهي.

تعبت. تعبت من حمل طلاسم نفسي، وعدم قدرتي على

الـذوبان في المـوجـود والمتـاح، من الاصـطدام والألم والـوحـدة. تعبت.

عمري ما حملت فكـراً أو أحسـست بإحسـاس أو عشت موقفـاً اختـرته إلاّ وكنت في منتهى الخلوص لـه. إخلاص أظنّـه سـاذجـاً جـدّاً أو ربّما بـريئاً جـدّاً، لا لأحد، بـل لفكرة. دائـماً أحسّ وأنا بصدد أيّ فعل أنّني في الحقيقة في مواجهـة فكرة، فكـرة فقط، لا نفسي ولا الآخر. عندئـذ أكون في منتهى التفـاني غارقـة في الفعل لآخره ومداه، حتّى لو كان أنّني أنظّف بلاط المـطبخ أو ألعب مـع طفـل أو أعوم في البحـر أو حتّى أتفرّج عـلى فيلم. ودائماً أخـرج هلكانة ومستهلكة.

تعبت وأنا أحصر نفسي داخل قوانينهم، بالعافية، عشت أيّـاماً صعبـة، وشهوراً، وسـاعات مـرعبة. لم أكن أعـرف أين أذهب؟ وماذ يحدث؟ وأين منقذي؟ وأصلاً ما هو؟

أكره بيوتهم وأثـاثهم وموسيقـاهـم وأكلهم - ونهمهم في الأكل - ولبسهم ونعـدتهم التمثيليّة المصـطنعة وطـريقـة فهمهم لـلأشيـاء وطريقة كلامهم. حتّى وأنا وحدي (الحلّ الذي فرضته على نفسي في وقت ما، حتّى وأنا في قلب الوحدة بعيداً عن كلّ حياتهم) كان الجحيم.

ما هو منقذي؟»

قلت: أنت ممتلئة بجسدك، وبالنعمة.

وكنت أحدس فخرها بجسـدها عارياً - أو في بدلة الرقص - كـبرياء الجسد وعزّته.

يتعدّى حدود جسدانيّته.

أمّـا وهي ترتـدي ملابسهـا فليس هنـاك هـذا الاعـتزاز، بـل هي

مغتربة، مسلوبة. في أحيانٍ تستعيد شيئاً من هذا الاعتزاز في ملابسها الفضفاضة حيناً أو المفتوحة حيناً، وحينها ترتدي جلاّبيتها على اللحم. ساقاها السمراوان المسحوبتان برشاقة عندما تطرحهما بحرّيّة وهي تتحرّك تعيدان إليها كبرياءها. لأنّها وهي عارية - أو في بدلة الرقص - حرّة وموجودة. هي نفسها، متملّكة نفسها.

سيّدة الفِقْه الجسديّ.

قلت: ما أبعدني عن هذا الفقه كلّه. أنا ابن أدنى قيم «البورجوازيّة الصغيرة» كما يقال. ألذلك تمرّدي عليها؟ ألذلك تعلّقي - بل استماتتي - في الجسد الذي يستحيل، ويتعدّى؟

«أحببت.

«لا يُقَل لي: طبعاً!»

«هذا شيء مختلف.

وقعت في بئر الطين وملأني النور ورحت معه للآخِر، ونزلت في عمق نفسي ورأيتها وجهاً وجهاً.

هل جرّبت أن تمسك بالطين الطّريّ في يدك؟ طين كثير تحطّه على كلّ جسمك. يغطّيك بطبقة من الردغة اللزجة. هكذا غطّاني الطّين في بئر حبيبي. غرقت في الطّين الجميل لغاية أمّ رأسي.

هل جرّبت أن تأوي إلى حضن جاموسة كبيرة وتسند رأسك على بطنها وتسمع ضخّ الدم؟ تحبّها وتحضنها وتحاول أن تحتويها وتلتصق بجسمها وتحاول وتحاول أن تبذل كلّ الممكن وتجري وراء النغمة الكثيفة لكي تمسكها بجسمك وتلفّ يديك حولها وتأخذها في جسمك بين يديك في حضنك؟

أنا فعلت

كلّ الممكن والمتاح والعاقل والناضج والعميق وكلّ غير الممكن وغير المتاح والمجنون، فعلته كلّه، أسقطت كلّ الحدود والقوانين، وعملت كلّ العيب والحرام والممنوع. لم يهمّني شيء. كنت كاسحة. أريد أن أقول كلمة أخرى: كنت فاجرة. فاجرة، وقحت وشلت ومسحت وولغت وانتزعت كلّه، لم أبق إلاّ لحمي الإنساني الداخلي البدائي.

عرفت أنّ الصحراء المترسلة الرائعة بلا أيّ حاجز في سينا، ومزارع العنب والنخيل إلى مدى الأفق، والرمل المتحدّر إلى البحر في الراس السودا، كلّها موجودة في قلبي. في كوني الداخلي. وعرفت أنّني لست قطعة بلاستيك. اقتربت بل وتوحّدت مع الكون والمجرّات والشموس وحكاية الإنسان ومعبد الكرنك وريكوَيَم موزار، بلا خوف ولا حزن.

كنت ألمس الأشياء من أوّل وجديد بدون إحساس الهول.

صدّقني لو قلت لك بكلّ أمانة إنّني كنت أسكر بلا سكر إلى حدّ أنّي لم أكن أستطيع أن أقف على رجليّ.

أسقطت كلّ الأقنعة والدروع، رسمت «ماجريت»، رحت في كلّ تصوفات باخ، رقصت ولعبت ودخلت بجسدي في كلّ طرقات الروح.»

قلتُ: نعم، بجسمك في كلّ طرقات الروح.

قلتُ: أصدّق. أعرف، أنا، بصميمي.

قلتُ: أمّا إنكار الجسد فهو تمجيده، مقلوباً على وجهه. النكران الحارّ هو أوجع الإيمان، كما تعرفين، أو لا تعرفين.

قلت: البؤس الجنسيّ لا أعرفه، على معرفتي بمضض الآلام الجنسيّة، والنشوة المحلّقة الغائرة في صميم الجسد.

كانت فيها عفويّة بنات البلد الجسديّة، تدفّقهنّ العضويّ الفيّاض غير المحجوز، ليس فيه ورع ولا تحجُّر، ولا تحرّج حتّى.

هل أنا أقدّس الجسد النسويّ، جسدها، جسد كلّ منهنّ، الرامات التسع، بلا مبرِّر؟

أم إنّ في هذا التقديس امتهاناً مضمراً خفيّاً لكلّ منهنّ، وتكريساً لمبدأ جسمي أنا؟ هل في هذا انعكاس لجسمي - وما وراءه - فيها، فيهنّ، في كلّ منهنّ؟

«دخلت بجسمي في كلّ طرق الروح»، لمجرّد هذا المعنى - وهذه الصياغة - أُقبّلك يا نايرة قبلة الحبّ والامتنان.

ومع ذلك فأنت - على صعيد آخر - غريبة غربة كاملة. هذا أعرفه.

ولصيقة بي، مألوفة وحميميّة وداخليّة عندي، كأنّني أقرأ منك جانباً من جسمي نفسه، جسمي الذي يطرق متاهات الروح.

جانباً هل أنا الذي غرسته فيها، أم هي التي زرعته فيّ؟

«دائماً كنت أقول له: أنا عطشانة لك. عندما أشرب لا أرتوي. عندما أرتوي أعود ظمآنة من جديد.

معه كنت دائماً مرتبكة، مضطربة، لا أعرف ماذا أريد. لا شيء. كلّ شيء. مثل المركب في بحر، بلا مجداف، بلا شراع. أو حافية على رمل لا حدود له ولا أفق في نهايته. أصابع قدميّ تغوص في الرمل الناعم.

كنت أقول له نصف ضاحكة نصف جادّة: أنت جاموستي!

كنت أقول له: تعال نذهب للناحية الأخرى. للاتجاه الآخر. للضفّة الأُخرى.

باختصار، أحببت. أكلت من طين الحياة. روحي نوّرت.

وإلى حدّ الهوس رأيت. ولأنّني عرفت عملت، دون تردّد.

أحسّ أنَّ كلَّ الأشياء صاحية، تكلّمني.

في معظم الأحيان أحسّ، أكثر ممّا أفكّر.

لم أتصوَّر قطّ أنّه في لحظة ما سوف تحاصرني هزيمة الآخرين وتضغط عليّ هذا الضغط الهائل، وتصبح الهزيمة هي القانون. هي التي في الشمس وأنا التي في الظلّ، هي التي تفعل وأنا المنتظرة، منتظرة الصدفة، منتظرة رحمة ما.

في لحظة مجنونة نظرت في يديّ. وجدتهما خاويتين. لا أمسك شيئاً. وبعد أن أمتلك كل الأدوات كانت الحكاية انتهت. بعد أن عرفت سرّ اللغة كان الموضوع الذي سأتكلّم فيه مات.

الغيط اختفى، البحر نشف، والصحراء انطوت.

ليس هناك ما أفعل. أحسّ أنَّ الحياة صغرت وأنّني ممكن أن أراها من خرم باب. ليس ثمّ موضوع، ليس ثمّ حدث، ليس ثمّ شيء كبير.

سافرت، ولكن - على الأقلّ بالنسبة لي - الخارج جحيم، خواء، بلا روح، فقد كلّ شيء. أنا لا أريد أن أتفرّج على شيء. أريد أن أعيش. اعيش.

أحسّ نفسي خاوية. أحسّ خارجي خاوياً

«أين الانتصارات؟ أين؟

حتّى أصحابي، إمّا في الحشيش، أو عند أطبّاء نفسيّين، أو تحجّبن أو ترهّبنّ، أو يجرون وراء فلوس، أجدهم إمّا محبطين، ساكتين، أو راجعين لما رفضوه طول الوقت.

أحسّ شيئاً من الهزيمة دخل في نسيج الحياة. هناك شيء لا طعم له، طول الوقت أحسّه، مع الناس، ومنهم، شيء قد فسد، مثل الأكل الحامض، أحسّ نفسي لا أكبر، ولا أنمو، لا أعمق. وبدلاً من أن أتكلّم مع الناس، والأشياء، أجد نفسي ساكتة طول الوقت، ساكتة معاقة منهم معاقة بهم معاقة فيهم.

ليس هناك انصهار حقيقيّ ليس هناك قضيّة ليس هناك تفاعل.

من زمان، عندما كنت أقوم بعمل ما كنت أحسّ بالسياق.

كان هناك تناغم وتصاعد ومحصّلة.

الآن أحسّ أنّني أظلّ ألفّ مثل الدينامو، ولكن ع الفاضي.

أقول: تحمّلي. نحن في الحياة يجب أن نتحمّل. ولكنّي أعيش أشياء قميئة مبتورة وناقصة. وفي الآخر أرجع، لأنّ هذا كلّه لا يحتمل».

عندما جاءت تزورني لأوّل مرّة دهشت، لأنّي رأيت فيها مزيجاً غريباً من رامة المتفجّرة المتمرّدة المزدهرة بالجنس والشبق لمّاحة الذكاء وحاضرة الذهن، ومن سماح أنور الغلاميّة المشاكسة بردودها الخام وصوتها الأبحّ قليلاً ـ على طلاوته ـ ومن أختي الصغيرة من سنوات، عندما كانت في السابعة أو الثامنة، تزورني في معتقل «أبوقير» تسير إليّ بخطوة صغيرة واثقة وجريئة وكاملة البراءة والشجاعة.

أردت أن أضمّها إليّ بمحبّة صداقة فوريّة، وأن أحسّ على صدري بنهديها الصغيرين، كأنّها بكر لنظافتها الجسدانيّة الداخليّة وتمام طهارتها.

لذلك لم أفاجأ حقّاً حينما تلقّيت منها الرسالة التي تقرأونها الآن معي، بالنّص تقريباً.

«أحسّ شيئاً كابوسيّاً يهدف إلى تحويل الناس إلى أجسام بلا روح، مثل الدجاج الآليّ في مزارع الدواجن والجمعيّات الاستهلاكيّة، مجاميع هائلة تخرج للحياة في المحاضن المبرمجة تؤدّي وظيفة مرسومة من الأوّل للآخر، ينتهي البرنامج فينتهون، لا صراع، لا اتصال. لا حوار، لا شيء إلّا الكابوس.

أنا أحبّ الحياة. أجد فيها متعة أفرح بها. أرقص فرحاً بها. لذلك كنت قد عذّبت في الحديد، عشت، اكتشفت، عرفت. لكن هذا الذي يسلبني فرحتي وإصراري الآن لا أعرف أن أتجاوزه. هذا الذي يحرمني من الرقص - معنى الحياة عندي - يحاصرني، هذا الكابوس، ويعزلني. طول الوقت أحسّ شيئاً لا طعم له. ولا أستطيع أن ألعب اللعبة الرديئة بالقيم، وبنفسي، وبإيماني. بفرحي وإقبالي على الحياة. بالرقص. لا أستطيع أن أهدر الحقيقيّ فيّ.

تعبت حتّى عرفت. تعبت تعباً حقيقيّاً حتّى عرفت ماذا يعني الحبّ، ماذا يعني ربّنا، ماذا تعني الموسيقى، وعلى الأخصّ ماذا يعني الرقص حقّاً. ماذا يعني البحر، وماذا يعني الجسم.

لا أستطيع أن أتجاذب أطراف الكلام اليوميّ الصغير. لا أستطيع العبث بما هو جدّيّ.

ولا أستطيع أن أظلّ هكذا طويلاً ولا أرى مخرجاً.»

«نايرة»

ماذا أقول يا نايرة؟ هل تستنجدين بمن يغرق؟
أم فقط تطلقين صرخة لا تملكين لها حبساً؟

أنا أيضاً لا أستطيع أن أقول لك، مثلاً: «لا تراعي، الزمن كفيل بأن يجد المخرج والنجاة.» هذا كلام صغير.

أمّا أنا فإن خرسي مطبق.

لا أستطيع ـ مهما تكلّمت ـ أن أقول شيئاً.

ثمّ إنّ هذه كلّها ليست قصّتي، ليست من صنعي. لا يـد لي فيها إلّا أنّني تلقّيتها.

أم أنّني بصوتك أنتِ أقول؟

النزوة الثالثة عشر

الولد والعمارة

سحب بيضاء ذيول مفرودة لطاووس أبيض في السماء.

سماء الروح التي لا تريد أن تنطفئ.

تتلقّى هذه السحب، دون توقّف، طعنات ثابتة من الأعمدة الخرسانيّة التي تنتهي بشعث من الحديد المسلّح متلوّياً ومعوجّاً، ضارباً في الزرقة البحريّة الساجية لهذه السماء الاسكندرانيّة التي لا مثيل لها.

ظلّت هذه العمارة سنوات لم يكتمل بناؤها، أوشك صدأ البحر أن يأكل قضبان الحديد الناتئة من أعمدتها وعوارضها الاسمنتيّة الضخمة المتقاطعة التي تذهب إلى بعيد في غور ظلمات العمارة الداخليّة.

نشط العمل الآن فيها، فجأة قلت لنفسي، وأنا أمرّ على الكورنيش، عند جليم، وهواء البحر القويّ يصطدم بوجهي. ضممت ياقة معطفي الواقي من المطر حول وجهي متلمّساً دفء الفرو الداخليّ، والرذاذ يصعد إليّ من خبط الموج على الصخر وكتل الحجر الرازحة مغطّاة بالطحلب المبلول داكن الخضرة، تحت.

كان الصبح العالي مختبئاً وراء السحاب الأبيض، مازلت أحسّ

أنفاسه، والشمس تتخايل تخترق الحجاب ثمّ تتوارى. أحسّ دفق دماء الشتاء الصاحية في جسمي سعيداً سعادة فيزيقيّة بحتة، بمجرّد المشي السريع على الكورنيش في مواجهة الهواء، وتشوّفاً للقاء أوديت في سكارابيه.

مازلت أرى الرجال يقيمون السقالات الخشبيّة على واجهة العمارة، يربطونها بالحبال الغليظة والكلاّبات الحديديّة الصدئة على شكل حرف «U» ذات الزنبرك القاضم عصيّ المرونة الذي يَحكُم تحرُّك الضلع المتنقّل من الكلاّبة.

وعلى الرصيف شكاير الاسمنت وكومة عالية من الرمل وكومة أخرى من الزلط. الرجال يعجنون الاسمنت بنشاط وسرعة ويخلطونه بمقادير الرمل والزلط المطلوبة ويصبُّون عليه الماء بقدر محسوب. الآن فقط أتذكّر هذه الصنعة الدؤوب البارعة كلّها قبل أن تختفي بظهور الخلاّطات الآليّة الضخمة.

فريق من الرجال آووا إلى الدور السفلي المفتوح. العمارة كلّها عوارض وأعمدة متقاطعة ومتشابكة ومفتوحة، هيكل مفرّغ.

أوقدوا ناراً من جذاذات الخشب المهمل على الأرض التي مازالت ترابيّة، كما يوقدونها تحت كلّ هياكل العمارات والأبراج الشاهقة التي يبنونها كلّ يوم ولا يسكنونها، أقاموا الكانون المرتجل التقليديّ من طوبتين وضعوا عليهما الابريق الصاج المهتزّ الذي ينفث الآن بخاراً خفيفاً ويهتزّ بغليان الشاي في بطنه المدوّر المليء.

قلت: ممَّن يلتمسون الدفء، من البرد أم من ظلم ليس له كلمات؟

قلت: بِمَ يحتمون؟ بالزمالة العارضة التي سوف تنقضي وشيكاً لكي تلتئم من جديد؟ أم بمجرَّد هرابيد الهدوم وخيش الشوالات المقطوع والصديريات البلدي المهترئة التي أكلها القِدَم؟

بأيّ حقٍّ أقول لهم أبي، أخي؟

وأنا مع أوديت على حافَّة البحر أترشَّف كأس البوردو الأبيض، النبيذ مصفرّ، شاحب الزعفرانيَّة في بياضه، أعرف الآن في فمي طعمه الحرِّيف ناعم الحدَّة، وأتلقَّى طعنة نظرتها، مكبوحة الغواية، تقول بهاتين العينين المصوَّبتين إليّ، ما لا تريد النطق به.

أحاول أن أنفي مشهدهم، بردانين تحت هيكل العمارة الخاوي، ولا أستطيع. أقول لنفسي: لا تنكر علينا المتعة الحسيَّة الصرف، في وهج زمالة غير ثابتة. هل نعرف - هل يعرفون - إلاَّ متعات من هذا النوع؟ ترشّف الشاي الثقيل اللاسع السخونة الغارق في السكّر، الشَفْط بين الشفتين الجافَّتين القشفتين، سَحْب السائل الكثيف، بصوت عالٍ ممدود، وفَرْد الظهر المكدود، ومَدّ الساقين النحيلتين حمّالتيْ الحُمول، وطقطقة الكتفين المكدومتين من عضّة الطوب ورزوح قصعة الأسمنت الطريّ التي تبدو صغيرة الحجم ولكنّي كم أحسّ أنّها ثقيلة على الكتفين، ثقيلة.

عندما رجعت وجدت لَمّة الناس المعتادة عندما يحدث شيء، تحت هيكل العمارة المضروب بالفراغ من كلّ جانب. وعندما اقتربت

وجدتهم كما توقَّعت جماعة البوَّابين النوبيّين بعممهم وجلاليبهم ناصعة البياض، والمكوجي ـ محنيّ الظهر دائماً، منحوف عظام الوجه، كأنّ بخار الكيّ وهبوة المكواة المحميّة تتطاير حول وجهه دون أن تنزاح أبداً ـ وصبي البقّال قصير القامة المدكوك الذي مازال متشوِّفاً متشوِّقاً لما في جعبة الحياة، هل يقضي عليه القهر؟ أو يفتح عليه الرحمن؟ أو يملأ كرشاً بطيناً مستقبلاً بأكل السحت؟ والباعة الجوّالون وضعوا مشنّات البلح الزغلول والأمْهات والمنجة على الرصيف أو احتفظوا بها في توازنها الحرج على رؤوسهم المرفوعة شامخة الرفعة.

لكن ما شدّ نظري هو تلك المرأة الأمّ التي حاولت أن أتذكّر أين رأيتها من قبل. حتّى عرفت.

كنت منذ أسبوع، أسبوعين يمكن، في قسم باب شرقي أستخرج ورقة الفيش والتشبيه لتقديمها للنقابة.

ولمّا خرجت من مكتب الضابط النوبتجي أحسست بخجل قليل من نفسي. البيه الصغير له معاملة خاصّة بينما طابور البطاقات الشخصيّة يمتدّ ويتلوّى أمام الشبّاك بقضبانه وفتحته الصغيرة وفوقه لافتة ورق أوشكت أن تبلى، بخطّ رقعة: المملكة المصريّة، مصلحة العمل. ووراء القضبان يجلس الشاويش وراء ترابيزة موضوعة تحت الشبّاك مباشرة مكوّمة بالاستمارات والطلبات على عرضحال دمغة والبطاقات الجديدة، عرقان، مكدود ضيّق الخُلُق، عليه أن يتعامل مع طابور صاخب بالكلام والاستعجال والتزاحم والتدافع الخفيّ تحت ستار حلو المجاملات. كان القانون رقم ١٢٣ لسنة ١٩٤٤ قد

صدر وابتدأ تطبيقه منذ قليل، على الكافّة أن يستخرجوا بطاقات شخصيّة: الصعايدة الخالدين، عمّال البناء الذين كانوا عندئذ أغلب من الغلب، لم يكن لهم وصف إلاّ أنهم بيشتغلوا في الفاعل، حفاة أقدامهم العارية سوداء تقريباً مشقّقة جافية الجلد على أسفلت القسم، والبيّاعين وأقفاص الجريد والمشنّات المرصوصة بالفاكهة والخضار، موضوعة على الأرض على جنب - بعد إذن الشاويش الواقف على الطابور ومعه عصا خيزران قصيرة والذي تكرّم بالإذن، بعد الشخط والنتر حسب الأصول المرعيّة، وبعد الحتّة بنصّ فرنك التي دُسّت في اليد الغليظة، والصنايعيّة بعضهم بالعفريتة المزيّتة وبعضهم بجاكتّات كاكي من «الأورنس» الانجليزي، والكاب العسكري الطريّ المطبّق دون شارات - هل قايضه أسير طلياني من وراء سور المعتقل بزجاجة سباتس؟ - والأفنديّة بالبدل الكحيانة والطرابيش التعبانة - ليس لهم واسطة كما كان عندي من الأستاذ باسيلي المحامي بالنقض، إلاّ واسطة ربّنا وحده.

ولكن ما بدهني هو هذه المرأة في الطابور - لم تكن موضة الرجال في صفّ والنساء في صفّ منفصل قد اخترعت بعد، وكان كلّ واحد ودوره، أو شطارته. كانت تدافع وتزاحم كالرجال، جلاّبيتها السوداء تشي بأصلها، سمراء محروقة صعيديّة الملامح وصلبة قائمة العود، يبدو أنّها لن تنكسر. وفي يدها - التي أدهشني صغرها ورقّتها ورهافة أصابعها على ما يبدو فيها من جفاف واضح - وَلَد. قلت إنّه، من جسمه، في نحو العاشرة مثلاً وإن كان وجهه - الذي يطابق وجه أمّه تقريباً بدكنته وصفاء خطوط عظامه تحت البشرة التي مازالت نضرة

ترفّ بماء الصبا ـ يبدو أكبر عمراً. وفي عينيه نظرة اقتحام، وشجاعة، وصبر.

ورأيت فيه الرجل الصغير ـ ككلّ الصعايدة ـ مشدود العود، هيكل كتفيه مستقيم الخطوط كعوارض خشبيّة، هندسيّة الاستقامة، وجلّابيته بالتفصيلة الصعيدي التي أعرفها، نازلة، تتّسع عند نهاية الكمّين، وفتحة العنق واسعة الاستدارة، يبدو منها القفص الصدري متيناً مضلّعاً تحت الصديري القديم المهدّل قليلاً، قلت كأنّه ورثه عن أبيه.

ظننت أنّي نسيت هذا الطابور. الآن أراه مرّة أخرى، وأخرى.

وثب إليّ مشهده وأنا أسمع المرأة تولول، دون ورع، بصوت ثاقب مازال يقرع قلبي وأرتجف له:

ـ ولدي. ! ولدي! يا بوي! يا دلّي من بعدك يا ولدي! ومن بعد أبوك. أنت وين يا ولدي!

عادت إليّ صرخة أبي الملتاعة ع الصبح في شقّة غيط العنب، استيقظت من نومي عليها: ولدي! ولدي! رحت منّي يا أمين!

كان قد جاءه خبر أخي الكبير الذي قتل في حادث قطار في السنبلاوين.

انتزعت نفسي من الصرخة، وسألت على استحياء، وخرج من اللّمّة أكثر من واحد يقول لي الحكاية.

كان الولد يصعد يحمل رصّة الطوب، يرتقي السقالات المنصوبة على واجهة العمارة. دخل في الدور التاسع. واختفى.

لم يعثر له على أثر، لا على الأرض ولا على عوارض الأسمنت والخشب، في كلّ الأدوار الستّة عشر، ولا على السقالات، ولا في أيّ مكان. لم يهرب، لم يره أحد ينزل من الدور التاسع، بل شهدوا بأنّه دخل هناك، وليس هناك مخرج. لم يسقط، ليست هناك جثّة، ليس هناك جريح، وليس هناك أحد.

ابتلعته العمارة النهمة، كأنّما كانت تطلب ضحيّة، أو قرباناً. كأنّها لم تكن تريد أن تُبنى دون أن تأكل فريستها. قلت هذا غير صحيح. قلت هذا غير معقول.

سألت: من امتى الكلام ده؟ دانا لسّة فايت..

قيل لي: من قيمة ساعة زمان كده.

قيل لم يظهر له أثر حتّى الآن.

قيل والعمارة الآن مازالت شاهقة، شامخة الصلف، أمام باسترودیس على البحر، في جليم.

فهل شبعتْ، ورضيتْ؟

أم هي مازالت جائعة تنتظر الفرائس؟

مازلت أسمع الصرخة حتّى الآن: ولدي..! ولدي..!

وفي الأخبار بتاريخ ٥ يوليو ١٩٨٧ ـ بعد أربعين سنة ـ انْ قَتَلَ ميكانيكي بالمطرية صبيّه الصغير وعمره ١٦ سنة. لم ينفذ الصبي تعليمات الأسطى فضربه بسوستة غليظة فوق رأسه فأرداه قتيلاً في

الحال. تمَّ القبض عليه واعترف ووجّهت له النيابة تهمة ضرب أفضى إلى موت وقرّرت حبسه أربعة أيام على ذمة التحقيق. وكان العقيد فرج زين العابدين مأمور قسم المطرية قد تلقّى بلاغاً بوفاة طفل صغير بورشة ميكانيكا بشارع نجيب معوض. انتقل إلى مكان البلاغ المقدّم محسن مراد وكيل مباحث فرقة الشرق. تبيّن أنَّ القتيل صبي عمره ١٦ سنة يدعى حسني رجب أحمد يعمل بالورشة.

يا ولداه.. !

قلت: يووووه.. ! من هذا كثير، في هذه الأيام.

وكانت خرفان العيد في الشارع بيض الفراء عليها ختم الصحة البيطرية بالأحمر الذي يتقطع بين خصل الصوف الطويلة مشعثة الأطراف، جسومها قريبة من الأرض، ممتلئة، ملظلظة، تترجرج، والليّة بطياتها الثقيلة تهتز وهي تمأمئ بصوت سمعت فيه نغمة شبع واكتفاء، ووراءها حارس - أو راعٍ - صبي يسير على الكورنيش حافياً كأنَّ قدميه تفاجآن في كل مرة بيبوسة الأرض وصلابتها، وكأنّما تنتظران أن تغوص الرمال قليلاً تحت وَطْءِ خطوهما، ولا رمال هناك، جلابيته الزرقاء قصيرة من قطعة واحدة خشنةً مربوطة بحبل عند وسطه وتحتها صديرية سوداء ولكن كالحة السواد قليلة الأزرار ليس كالصديرية البلدي أو الصعيدي المليئة بالأزرار المدوّرة اللامعة، قلت لعلّه من عرب نواحي الدخيلة، أو من بعد العجمي، شكله صحراوي على كل حال. ومعه بنت صغيرة - في الرابعة أو الخامسة ربّما، تثب بخطوات اللعب، جلابيتها طويلة حمراء لُمِّيع، وفي يدها هي الأخرى عصا قصيرة تساوق العصا الغليظة التي يمسكها أخوها -

لعلَّه أخوها؟ لا يمكن أنَّه أبوها مثلاً؟

قلتُ: الضحايا.

قلتُ: الأعياد لا تقوم إلا بالضحايا.

قلتُ: لا. الضحيّة في العيد رمز وليست واقعة.

أمَّا الرموز عندنا فلا بدّ أن تتجسّد.

كتبت سهام ذهني في صحيفة، أو مجلّة، لعلّها «أكتوبر» بل أكاد أوقن بذلك من مجرَّد نوع الورق وبنط الطباعة، عثرت على صفحة منها مقطوعة لا أدري ما تاريخها، لكنّها بلا شك في السبعينات أو أوائل الثمانينات من السياق، كأنَّه نقش محفور، ومكتوب، لا يتغيّر:

«محمد محمود اسماعيل من الفيوم ومسافر إلى الأردن: أنا من صغري شغّال في طائفة المعمار. لا مؤاخذة نشيل بالقصعة ونطلع السقالة نصبّ السقف مع المقاول. يوم نشتغل ويوم لأ. لا رحنا هنا ولا هنا. الحكاية مش حكاية تليفزيون أو مسجّل. هو الواحد حيدوّر ع النزاهة ولاّ يدوّر على لقمة العيش. إن كان ع النزاهة آدي مصر حلوة. الواحد يقدر يركب الأوتوبيس ويفضل رايح جاي طول النهار. إنّما إحنا بندوّر على لقمة العيش» .... «باشتغل على دراعي واللّي باعمل بيه باصرفه.. حبّيت اني أسافر وربّما يرزقني زيّ غيري» .... «جاري كان تعبان زيّي وبعدما سافر رجع استريّح، أنا كمان عايز استريّح زيّه وبعدين إحنا مش رايحين نسرق، إحنا رايحين نشتغل وقاصدين الكريم»

وكان الطفل على حِجْرها هامداً، شبه ميّت، شبه جثّة تنبض بحركات ضعيفة وكانت فسحة العيادة البلاط العاري في راغب باشا

مزدحمة بهم، هم أنفسهم - أنا منهم في النهاية أقول لنفسي - يحيطون بي، هؤلاء الصعايدة والصنايعيّة والبيّاعين والأفنديّة الغلابة، المقاعد الصلبة الخشنة مرصوصة داير ما يدور على حيطان العيادة، أنفاس المرض والملل والانتظار ثقيلة. وكانت بيضاء الوجه، فيها جمال، في عينيها حَوَل خفيف، تلفّ جسمها بالملس الدمنهوري الأسود المكشكش كثير الطيّات، وكانت تبدو مرهقة، هلكانة. قام زوجها، طويل القامة، في جلّابية صعيدي سابغة وثقيلة، نحيلاً وقادراً، ودخل إلى المطبخ حيث يجلس التمرجي على الباب، مستنداً إلى مائدة خشبيّة قديمة عارية، عليها فقط دفتر يكتب فيه بالقلم الكوبيا جدول كشف الأتعاب. سمعت وابور الجاز يهبّ، ويفحّ، ثمّ ينتظم وشيشه، وخرج الزوج وفي يده كوب الشاي الأسود الثقيل، قدّمه لها. دون كلمة. وكانت جلّابيته تبدو وكأنّها على تمثال.

هل كان أحمد حمروش هو الذي فتح الأوبرا لأصحاب الجلاليب؟

في المبنى الخديويّ العريق، جالسين بفخر واعتزاز على المقاعد ذات القطيفة الحمراء الداكنة، قادمين من شوارع وحواري القاهرة التي كانت مظلمة تقريباً تحت غارات الطيّارات الفرنسيّة والانجليزيّة والاسرائيليّة؟

سمعنا «اخناتون» يتحدّث عن سلام عادل مقاتل - من أيّامها - وينهزم، وموسيقى كامل صليب: طَرْقات طبلته الموقّعة الموزونة بهندسة وحسّ حارّ تقرع الصمت المهيب الباذخ، والقلب.

ورأينا «عفاريت الجبّانة» و«موش حنسلّم» بديكوراتها الفاخرة المزّقة بجمال مقصود، مضاءة بتهاويل مصابيح الإخراج المرهف،

والحوار شرائح ممزّقة أيضاً. حماسة الوطنيّة تفيض على شطوط الفنّ وتغرقها، ونرحّب بها، يسمعون «صوت مصر» سناء عالية الدراميّة، في معترك الحبّ والحرب، أم هما معتركان موحّدان تحت الراية المرفرفة البرّاقة؟

لم يكن فيهم حفاة. وكانوا يعرفون ما الشعر، على طريقتهم.

احترقت الأوبرا، أليس كذلك؟ واحترقت تلك الأيام. كما كان لا بدّ أن يحدث. ليس قدراً. بل بفعل.

ذكرت مقاعد الأوبرا المخمليّة الحمراء الداكنة عندما ركبت الديزل التوربو الفرنسي الباذخ، من محطّة مصر. ولكن الأوبرا لم يكن فيها هذا الهواء المكيّف المثلوج الصناعيّ.

تباطأ القطار قليلاً بعد الكوبري، وفوجئت بمدينة الصفيح الصغيرة الطارئة التي لم أكن أعرف لها وجوداً، عند الحضرة، قبل السجن بقليل.

البيوت، الجحور، العشش المقامة من ألواح الصفيح المتموّج والمطروق، متعدّد طبقات اللون بين الصدئ والكابي والمعدنيّ اللامع الجارح، معلّقة، مائلة على جوانب ربوة الحَضرة المرتفعة التي تحفّ بشريط السكّة الحديد، بين أكوام الزبالة الجافّة العتيقة، مسقوفة بجذوع شجر وعوارض خشب ولوحات صفيح أيضاً وعلب كرتون مقوّى فُردت وثُبّتت على الألواح الملصّمة وخشب الأبلكاش المنتقَذ من زبالة المدينة.

قلت: العمارة أكلت الولد، وهذه العشش البذيئة في فقرها الموحش ما فرائسها؟

رأيت هوائيّات التلفزيون تنشقّ من على بعض سقوف هذه العشش، والأولاد يتسلّقون الربوة المتحدّرة التي انتثرت عليها ولصقت بها مخلّفات القمامة.

هل قلت إنَّ الشِعر احترق؟

تظلّ العنقاء تولد من جديد، عنيفة الجناحين، من الرماد.

كيف لي أن أقول ما أريد.

النزوة الرابعة عشر

ستّة خيول

كنت أسافر أحياناً من القاهرة للاسكندرية بالطائرة.

كانت أشواقي إليها لا تحتمل السفر بالديزل المجريّ الجديد، مهما بدا من سرعته وكفاءته.

ومن مطار النزهة القديم كنت أهاتفها ونحدِّد ميعاد اللقاء، عادة بعد ساعة، عادة في «غزالة».

وكانت «غزالة» جنب سينما استراند، أنيقة وهادئة وبها أرائك وثيرة ومريحة تدور حول جدرانها التي تسبح في ضوء غير مباشر آتٍ من كرانيش علويّة في الحيطان مرهفة البناء. وكنّا نقول إنّنا سوف نصنع في بيتنا هذا الضوء الشاعريّ، وتلك الكرانيش، ولم نصنعه قطّ، وأما ضوء الشِعْر الداخلي - مرهفاً أو عاصفاً - فقد غمر بيتنا.

كانت هناك أيضاً موسيقى غير فجّة تنبعث من سمّاعات مدوّرة كبيرة موزّعة بحذق ودون اقتحام على الأركان.

أي باختصار كانت مكاناً جميلاً للقاء محبّين، على الرغم من أنّها قد تبدو لك الآن - وعندئذ - كما لو كانت مأخوذة من إحدى قصص

محمود كامل المحامي الرومانسيّة جدّاً من الثلاثينات. لكن «غزالة» بالطبع لم تكن مجرّد اكليشيه

قلت مرّة أخرى وأخرى، بلا انتهاء:

- مهما كانت الكلمات، قادرة أو قاصرة على السواء، فما أبعدها عن الخبرة الحيّة وما أكثر ما تحمل الكلمات من إيحاءات ودلالات وأعباء عاطفيّة وتاريخيّة وفكريّة لا وجود لها حقّاً في تلك الخبرة المعاشة مباشرة دون وسيط.

دعنا الآن من النظر - ولو خطفاً - إلى ما وراء الكتابة.

كنت عندما أصل بالتاكسي إلى بيتنا في شارع الباشا في كليوباترا الحمّامات، أغيّر البدلة، وأعنى بربط الكرافتة - أيّامها وفي الشتاء خاصّة كنت أعنى بارتداء الكرافتة: محبٌّ محمولٌ على أجنحة أيّام الخطوبة.

أجنحة الطائر الصبور الرؤوم لم تسقطني قطّ.

أنتظر وصولها في محطّة الرمل التي يحفّ بها النخل السلطانيّ العالي من الجانبين، أترقّب وصولها على خطّ باكوس أو سيدي جابر الجامع، ونزولها من الترام الأزرق الذي يأتي، كفئاً، وفيّاً، شديد النظافة، ودقيق المواعيد.

يثب قلبي - كلّ مرّة، كلّ مرّة يا ربّي! - عندما ألمح قامتها الرشيقة الدقيقة. الوجه المضيء الممتلئ قليلاً والمشرق بابتسامة صافية تكاد تكون طفليّة العذوبة، والخصر الرقيق الرفيع الذي تكاد أصابع يديّ المدوّرتين تطوّقانه من فرط رهافته وتهضّمه.

قـالت لي إنَّ السرتيت الذي يحيط بـرأسهـا يمكن أن يـدور حـول وسطها.

نصعد السلالم القليلة إلى «غزالة»، وتتماس أيدينا ـ كأنَّما برغمنـا، كأنَّما بقوّة لا نُسائلها ولا غلاب لها ـ ونحن نغوص على قطيفة الأريكة البنّيّة ناعمة الوبـرة. وعيونـنـا متشابكـة، ليس بمقدورهـا أن تنفصل، بنظرة عميقة كأنَّما تذهب بعيداً إلى أغوار ليـسـت مسبورة في الروح.

كنَّا ـ حتّى في الشتاء ـ نبـدأ بأن نـطلب «تروا پيتي كـوشون» (يعني ثـلاثة خنـازير صغـيرة) ويأتي الجيـلاتي المشكّل ثـلاث قطع مستـديرة متجاورة: شيكولاتة وكريمة وفسدق، في كأس فضّيّة مصقولة لها ساق مشغولة منمنمة.

وبعد المتعة بها ـ وبأحدنا الآخر ـ وبالحـديث عن مستقبل غـامض المعالم يشعّ بالشغف والتمنّي،

نُثنّي ـ دائماً أو غالباً، حتّى في الصيـف، بكأس من الكونياك، أُوتار أو كورڤوازييه ـ يصعد بالدم والأحلام والانتشاء إلى الرأس.

ثمَّ نـذهـب بعد ذلـك في العادة إلى سينـما أمير أو مـترو أو رويال، القاعة في كلّ الحالات فخمة تلك الفخامة المبتذلة المنمطة ـ تبدو وثيرة وباذخة وفريدة مقارنة بما يحدث الآن ـ الأضـواء الناعمـة المحكومـة، المـوسيقى المعنيّ بـاختيـارهـا، اللغط البهيـج الأنيس من متفـرّجــين متشوّفين ـ دون لهفة ودون لهوجة ـ لمتعة الفرجة، وقد أخذوا زخـرفهم وازّينوا، لبـسوا الأنق الـذي على الحبـل، نفث العطور الخـافت غـير الجارح يهبّ مع ضحكات خافتة قصيرة، حتّى تطفأ الأنوار.

تمتدّ يدي لتمسك بيدها الناعمة المطواع، أضعها على حجري، يمتّعني الآن مجرد مسّها واستجابتها.

قد تكون «غزالة» قد ذهبت، وكلّ ذلك، لكنّها كلّها الآن حيّة قويّة الحضور.

مازلنا نستطعم لذاذة الجيلاتي - والأحلام، تصوّر! - والكونياك، ومازلت أشعر بملمس اليدين الناعمتين الصغيرتين عصفورتين مرتجفتين مستكنتين في يديّ، أو متكشّفتين على استحياء وتورّع ومغامرة معاً.

عندئذ تتبرّر ليالي الشتاء التي كم ضربت فيها على طريق البحر، أمشي على حافّة الأبد، بين أنوار المدينة المتراجعة، ولُمَع الزَّبَد المتطاير في الزرقة الداكنة.

عندئذ يصبح معنى لضربات الموج التي تثب من فوق سور الكورنيش، تطسّ أحجار الطريق البيضاء، وتبلّل الوجه المكبوح، تبلّل الوجد المكبوح.

عندئذ تجد الأشواق موضوعها الذي لا تني تجده وتفقده وتجده، باستمرار.

والجرح، بشكل مستحيل، كأنّه يصبح بدء ابتسامة.

تتبدّد أكوام السماء الغائمة، الظلال الراحلة تتشتّت بطعنة الفرح. رياح الاقتضاء تحمل صدى المدينة والضحك. وقدة الشمس البهيجة تسطع بين جنبيّ، عطر العود القماري، تسقط أسوار المدينة صخور السماء.

الصحـراء التي لا تنتهي ليست إلاّ ركنـاً من امتـدادات روحي الشاسعة.

أنت مدينتي.

كثيراً ما كان يدخل «غزالة» رجل غريب، يشرب كأساً على منصّة البـار الخالية معظم الـوقت، قبل السـاعة التـاسعة - وينـزل يتأوّد في مشيتـه، في بنـطلون محـزّق - خـالص - وجـاكتّـة مخنصرة - خـالص. يتلفّت حواليه بحركات دلال تكاد تكون غنجـة، ويتكلّم بصوت فيـه غنّة خفيفة وهو يشير بـأصابعـه الطويلة إشـارات كلاسيكيّـة في رقّتها وإيماءاتها. وكان واضحاً أنّه يأتي مباشرة من الكوافير الذي مارس على وجهه فنون الصقل والتنعيم، بالموسى والفتلة ومختلف الكريمات.

وكـانت تنظر إليـه باستغـراب قليل، وأحسست أنّها لم تفهم شيئـاً كثيراً حينما حاولت أن أشرح لها، بقدر من التهذيب ضروريّ، وقدر من الوضوح ضروريّ أيضاً. ولعلّها لم تعرف تفاصيـل أكثر عن هـذه الأمـور إلاّ بعد سنوات طويلة، من صـديقة لهـا كانت تبـدو بمظهـر المحنّكة العارفة بالخفـايا وهي بـريئة وسـاذجة حتّى بعـد أن أصبحت جدّة. وجاءت تروي لي بخجل ودهشة حقيقيّة توشك أن تكون عدم تصـديق، وبعبارات علميّـة تقريبـاً مأخـوذة من الكتب، كيف يصنع فعل الحبّ هكذا.

وكان هذا الرجل عندما تضيق به الأحوال فيما يبدو ينـزل درجة أو درجـات في ساحـة صيده. وكنت أراه في «كِنْت بـار» في شارع النبي دانيـال، الحـانـة الـدفيئـة المكتـظّة التي تخلّفت عن عصر العـســاكـر الانجليز - والملايطة والأستـرال والافريكاندر والفرنسيّين الأحرار من

أصحاب ديجول - ولعلّها عملت خاصّة لهم في آخر الثلاثينات - لست أدري - فقد كانت تشغل ساحة رصيف منفرجة داخلة من الشارع بين عمارتين، قبل أن تصل إلى شارع سعد زغلول. أقيمت من جدران من ألواح خشبيّة محكمة، متلاصقة، مدهونة بالأخضر الداكن زادت الأيّام ومياه الأمطار، الآن، من دكنته، في مواقع، وتقشّر طلاؤها عن الخام الكابي خشن الصفرة ضارباً إلى الغبرة في مواقع أخرى.

كنت ألتقي بأصحابي المدرّسين عند خروجهم من المرقسيّة الثانويّة، فيهم من وصل فيما بعد إلى الدكتوراه والبعثة ورئاسة أقسام الفلسفة أو الانجليزي ووكالة كليّات الآداب، وكانت كأس النبيذ الأحمر - أو الأبيض المثلّج - والمزّة التي هي بمثابة عشاء تقريباً: أطباق فخّار صغيرة ولكن عميقة جليلة المحتوى، الكمّونيّة، والكرشة شرائح دقيقة بالصلصة، والبساريا المقليّة تقرقع في الفم هشّة وسهلة المكسر، وأمّ الخلول المفتوحة في صدفاتها المستطيلة مستقرّة في مائها المتبّل بالملح والخلّ وبهارات أخرى، وغيرها وغيرها، كلّها بعشرة صاغ للواحد ونصّ فرنك بقشيش يفعل المعجزات بطبيعة الحال، ندسّه في ودّ - كلّ على حدة إذا أمكن، أو جماعيّاً في الغالب - في يد فانديلي الجرسون الجريجي اللابس الردنجوت الأسود والقفّاز الأبيض - طهرانيّ النظافة - وهو متخشّب الظهر، مبتسم لنا ابتسامة بروتوكوليّة ثابتة، يتسلّل إليها - ربّما - دفء لعلّه مخصوص بنا، وإن كان مدفوع الثمن.

لم أذهب بها قطّ إلى «كنت بار» على أنّني حكيت عنه كثيراً، فلعلّه

كان صاحباً ورثّاً قليلاً مهما كانت كرامة خدمته ولذاذة مزّته.

كنت ألتقي فيه بعبد القادر نصر الله صديقي الذي أحبّه كثيراً وكان قد عاش في قَطَر سنوات طويلة ولمّا عاد هو الذي ذكّرني بـ «كنت بار»، وأخيه عبد الرؤوف أحياناً، وفتوح القفاص، وسليم الأسيوطي ابن الشيخ البروتستنتي وأستاذ الفلسفة المتفرّغ الآن، دقيق الذهن فخوراً برجعيّة مبرّرة عقليّاً تبريراً صارماً، وعبد الحميد يسري، وأحمد صبري الرسّام - مات أخيراً هادئاً نائماً في بيته بالفيوم أسابيع قليلة بعد أن رأيته على أثر انقطاع دام سنوات - ووديع كيرلس، واسماعيل البكري الذي حكى لي حكاية غريبة تظلّ عندي - على شكلٍ أو آخر - مرتبطة بحكاية «كنت بار».

حكى لي صديقي اسماعيل البكري أنّه عندما كان صبيّاً - وكان أبوه عندئذ حكمدار بوليس السكّة الحديد في المملكة المصريّة بحالها، كانوا مسافرين إلى طنطا، مرّة، في موسم السيّد البدوي.

فلمّا دخل الكمساري الديوان المخصّص لسعادة الحكمدار، نهض الرجل المهيب، وأدّى التحيّة العسكريّة - بكل دقّتها تقريباً - للكمساري، وأمر الولد أن يقبّل يد عمّه سكله: حِبّ على إيد عمّك سِكْله يا ولد، حِبّ..!

وصدع اسماعيل الصبي بالأمر طبعاً، وإن كان لا يفهم شيئاً. كيف يحبّ على يد «عمّه» الكمساري، وأبوه - الحكمدار - كيف يؤدّي له هذه التحيّة؟ لم يجرؤ على السؤال طبعاً، ولكن أباه - بعد أن عاد لمجلسه الوثير في الديوان الدرجة الأولى المحلّى بصور فوتوغرافيّة

تقليديّة، بلون السيبيا، لمعبد الأقصر والاهرامات وأبيدوس والقناطر الخيريّة، في براويز زجاجيّة معنيّ بها - حكى لابنه الحكاية.

قال إن عبد المسيح بيه سكله الكبير، عند الاحتفال بتعميد ابنه البكر في كنيسة البطريركيّة القديمة في كلوت بيه - أجّر قطارات السلطنة المصريّة المتّجهة إلى القاهرة من كلّ أنحاء القطر، من الساعة الثامنة صباحاً حتّى الساعة الثامنة مساء، كلّها، حتّى يركبها المهنّئون القادمون للاحتفال والتبريك والغدا، على حساب البيه.

قال له إنّ عبد المسيح بيه سكله كان يلعب بالفلوس، وأنّه في الزمن القديم أنقذ عائلة البكري من ضيقة عابرة، كانت ستنفرج على كلّ حال ولكنّه بادر، دون سؤال من أحد، فأخرج من عبّه كيس القطيفة الأحمر ودون أن يفكّ الدوبارة المبرومة التي تزرّه أو تحزمه، سلّمه إلى جدّه اسماعيل البكري الكبير، مثقلاً بالجنيهات الذهب البنتو، أمانة إلى حين ميسرة، دون ورقة، دون حساب. طبعاً ردّ اسماعيل بيه البكري الكبير هذه الأمانة بأحسن منها، وهبه فدّانين من أجود أطيان الغربيّة، هبة شرعيّة خالصة من كلّ شرط.

لكن عبد المسيح بيه سِكْله خسر كلّ شيء، في بورصة القطن.

«الاسكندرية في ٣ أغسطس ١٩٤٢

«لماذا تأبى أن نلتقي احراراً كبيري القلوب في أفق الفكر الصامت؟

«ولماذا ترى الحقيقة من خلال الغضب الإنسانيّ الذي أرجف له؟

«ولم تجعل من إيمانك الإنساني درعاً لقلبك؟

«هناك مسؤوليّة تحيا وحيداً معها فلا تجعلها تشعرك بانفصالك ووحدتك.

«لأن من تراهم ينبذونكم، أنت تحيا لهم، فاجعل من آلامك عيداً لكل إنسان.

وهل يتردّد الألم في آفاق كلّ نفس ما لم يكن إنسانيّاً؟

إنّي أريد أن أكشف لكم جميعاً عن ذلك الجلال الذي يتردّد بين العدم واللاّنهاية.

وأرغب - لو استطعت - أن أجعل من نفسي أرغفة المسيح.

لنرتفع بإيماننا إذن فوق الغضب والشهوة ولنشبع فينا هذا النزوع الإنساني الحارّ كالصلاة الذي يدفعنا إلى وضع عدالة بعد الموت يطمئنّ إليها النزوع الفاني.

إنّي أحدّث فيك فضيلة الحرّيّة التي حدّثتك عنها.

ومن يدري؟ لعلّ الفناء كامن وراء كلّ عاطفة كليّة، ولعلّ الفناء هو الذي يدفعني إلى تلمُّس الجانب الخالد في كلّ إنسان.

أجل، كثيراً ما يكون الفناء لنا بصيرة.

أريد - بحبّي - كلّ إنسان أن يكون كالمعبد نشعر أمامه بجلال الصراع بين الحياة وذاتها، وبنوع من الإلزام الخلقي.»

«سامي»

أيْ سامي، ما أقربك إليّ! هل مازلت تحمل هذه الإرادة، هذه العقيدة، هذا السؤال؟

وهل مازلتُ أحملها؟

في ظهر يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٤٣ كان صوت جرس الكنيسة المرقسيّة جليل الوقع، بطيئاً في دقّاته الجنائزيّة التي يأتي إيقاعها من بعيد، يضرب قلبي.

كانت العربة السوداء تقف أمام الباب في شارع ابن زهر، عليها تمثال الملائكة المذهّبة الصغار مبسوطي الأجنحة، محنيّة رؤوسها على التابوت المسجّى، وأمامها الخيول الستّة، مغمّاة، مغطّاة بأوشحة داكنة الزرقة تنتهي بشراشيب ثقيلة، والحوذي قائد النقلة الأخيرة على مقعده العالي، في البدلة الردنجوت السوداء والقفّاز الأبيض محكم النظافة.

وعندما أنزل الرجال التابوت المعمول من خشب الجوز والمصفّح بنحاس مذهّب، وصعدوا به السلالم الضيّقة، ودخلوا به البيت، كانت خالتي حنونة تطلق صواتها الثاقب المدروس في الشقّة كلّها، ليست فيه لوعة وإنّما خبرة موجعة.

انضمّت إليها في إعلان الحزن فاجع الصوت حلقة النساء السوداوات.

لم أرَ وجه أبي في موته.
لم أستطع.

سارت العربة، بحركة وئيدة إلى شارع إيزيس وأمامها بساط الرحمة الأسود يمسك به الشمامسة وأراخنة الكنيسة، من الجانبين.

ووراء العربة كانو يسيرون بتمهّل، وكانت سيّارات الأجرة، والملاّكي القليلة، والحنطور تنساب بنعومة في زحام وسط البلد، تحمل المعلّمين والتجّار وكتبة الحسابات والعملاء الآتين من شارع أنسطاسي وكوم الناضورة والجمرك واللّبان، بالعمائم والطرابيش

والبِدَل والجلاليب والبلاطي، المسابح في الأيدي والمصاحف الصغيرة أو الصلبان الصغيرة، لا فرق، في طوايا الجيوب، والقلوب.

ومازال الجرس المهيب يوقّع على السماء بدقّاتٍ متباعدة قليلاً، عميقة الصدى.

مرّ صبيٌّ صغير، حافي القدمين، جرياً من أمام الجنازة، وبصق.

ذكّرني صديقي بدوي بأنّني قلت له ذلك المشهد، بينما كنت أنا قد نسيته.

غيابة الدمع أم غيامات المرارة أنستني؟
ودِّعْ العربة ذات الخيول الستة.

كنت أنت وراءها في السيارة، تهزّك الدموع، بين خاليك يونان وناثان، وصديق لهما، غريب، ما مكانه هنا؟

لا تستعِدْ إيقاعها
ولا تقل إنَّ ذلك ذكرى قد عبرت.

بل استمع إلى دقّات الجرس الكبير، بطيئة، ضاربة، ماتزال ترنّ في جنبات سمائك.

ودِّعْ العربة ذات الخيول الستّة.
فقدتَها، فقدت من تحمله العربة، في رحلته الأخيرة.

وما تحمله.
ولا تستطيع أن تنسى الفقدان؟

لأنك ـ ربّما ـ لن تمضي في عربةٍ ذات خيول ستّة.

أمواج الشمس الحارّة طوفان البكاء غيابات السحاب الأبيض.

إدوار الخرّاط

١٠ أبيب ١٧٠٨

١٧ يوليو ١٩٩٢

للمؤلف

١ ـ حيطان عالية، مجموعة قصص، على نفقة المؤلِّف، القاهرة ١٩٥٩ ـ دار الآداب، بيروت، ١٩٩٠ طبعة ثانية.

٢ ـ ساعات الكبرياء، مجموعة قصص، دار الآداب، بيروت ١٩٧٢ ـ دار الآداب، بيروت، ١٩٩٠.

٣ ـ رامة والتنّين، رواية، طبعة محدودة، القاهرة ١٩٧٩، المؤسَّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٠ ـ دار الآداب ١٩٩٠.

٤ ـ اختناقات العشق والصباح، قصص، المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٣، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢.

٥ ـ الزمن الآخر، رواية، دار شهدي، القاهرة ١٩٨٥ ـ دار الآداب، بيروت، ١٩٩١.

٦ ـ محطّة السكّة الحديد، رواية، مختارات فصول، القاهرة ١٩٨٥ ـ دار الآداب، بيروت، ١٩٩٠.

٧ ـ ترابها زعفران، نصوص اسكندرانيّة، المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٦ ـ دار الآداب، بيروت، ١٩٩١.

٨ ـ أضلاع الصحراء، رواية، الهيئة العامّة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧.

٩ ـ يا بنات اسكندرية، رواية، دار الآداب، بيروت ١٩٩٠ ـ دار إلياس العصريّة، القاهرة ١٩٩١.

١٠ ـ مخلوقات الأشواق الطائرة، رواية، دار الآداب، بيروت ١٩٩٠ ـ الهيئة العامّة للكتاب ١٩٩٢.

١١ ـ مختارات من القصّة القصيرة في السبعينات، مع دراسة، مطبوعات «القاهرة»، القاهرة ١٩٨٢.

١٢ ـ أمواج الليالي، متتالية قصصيّة، دار شرقيّات، القاهرة ١٩٩١ ـ دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢.

١٣ ـ حجارة بوبيللو، رواية، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢. دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٢.

١٤ ـ اختراقات الهوى والتهلكة، نزوات روائية، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.

١٥ ـ الحساسية الجديدة، مقالات في الظاهرة القصصيّة، دار الآداب، بيروت، تصدر عام ١٩٩٣.

١٦ ـ عدلي رزق الله، (مائيّات ٨٦) دراسة، على نفقة الفنّان، القاهرة ١٩٨٦.

١٧ ـ مائيّات صغيرة، دراسة، القاهرة، أغسطس ١٩٨٩.

١٨ ـ أحمد مرسي، دراسة ومختارات شعريّة، القاهرة ١٩٩٠.

١٩ ـ الخطاب المفقود، أ. ل. كارجيالي، مسرحيّة، الدار المصريّة للكتب، القاهرة ١٩٥٧.

٢٠ ـ الحرب والسلام، ج ١ و٢، ليو تولستوي، رواية، الدار المصريّة للكتب، القاهرة ١٩٥٨ ـ الهيئة العامّة للكتاب ١٩٩١ ـ ١٩٩٢.

٢١ـ الغجريّة والفارس، قصص رومانيّة، الشركة العربيّة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٨.

١٩ ـ شهر العسل المرّ، قصص إيطاليّة، كتب ثقافيّة، القاهرة ١٩٥٩.

٢٣ـ فارالاكو، إميل سيسيه، رواية غينيّة، الألف كتاب، القاهرة ١٩٦٢.

٢٤ ـ أنتيجون، جان آنوي، مسرحية (بالاشتراك مع ألفريد فرج)، الألف كتاب، القاهرة ١٩٦٣.

٢٥ ـ مشروع الحياة، فرانسيس جانسون، دراسة، دار الآداب، بيروت ١٩٦٧.

٢٦ـ ميديا، جان آنوي، مسرحيّة، مجلّة المسرح، القاهرة ١٩٦٨.

٢٧ ـ الوجه الآخر لأمريكا، ميكائيل هارنجتون، دراسة، دار الآداب، بيروت ١٩٦٨.

٢٨ـ تشريح جثّة الاستعمار، جي دي بوشير، دراسة، دار الآداب، بيروت ١٩٦٨.

٢٩ـ الشوارع العارية، فاسكو براتوليني، رواية، دار الآداب، بيروت ١٩٦٩ ـ دار الياس العصريّة، القاهرة ١٩٩١.

٣٠ ـ نحو التحرُّر، هربرت ماركوز، دراسة، دار الآداب، بيروت ١٩٧٢.

٣١ ـ حوريات البحر، قصص أمريكيّة، دار الهلال، القاهرة ١٩٧٩.

٣٢ ـ الإسلام والاستعمار، رودلف بيترز، دراسة، دار شهدي، القاهرة ١٩٨٥.

الفهـرس

النزوة الأولى: إثم متكرِّر قديم ٧
النزوة الثانية: الأشجار السوداء ٢١
النزوة الثالثة: ثعبان في الأعشاب ٣٧
النزوة الرابعة: نزوة مختنقة في الفجر ٥١
النزوة الخامسة: سراي المجيدية ٦٥
النزوة السادسة: اليقظة في المعتقل ٨١
النزوة السابعة: في نور الثمل الساطع ٩٥
النزوة الثامنة: «دندرة» أنداتي ١٠٧
النزوة التاسعة: الباب الأخضر ١١٩
النزوة العاشرة: قصّة عودة ١٣٥
النزوة الحادية عشرة: سوق المسلّة ١٥٣
النزوة الثانية عشرة: الرأس السودا ١٦٧
النزوة الثالثة عشر: الولد والعمارة ١٨٥
النزوة الرابعة عشرة: ستة خيول ١٩٧

متى ينتهي طراد الأحلام؟
متى الأحلام الصيفيّة تكفّ عن مطاردتي؟
النافذة العريضة الواسعة مفتوحة أمامي، على مصراعيها، لا شيء يحجزني عن التردّي في هوّة الضوء الفاغر.
يغويني التدهور، وأنا محمول على أجنحة الضوء غير المرئيّة.
يغويني.

حضورٌ أنثويٌّ أعرفه، أحسّه في الظلّ، خلفي. لا أتبيَّنه تماماً، لكنّي أعرف تماماً دوران هذا الردف المحبوك في التاير الداكن، أعرف لفّة الكولان الشفّاف بسمانة الساق العبلة. ساقٌ كأنّها وحدها، لها حياتها. لا صلة لها - هذه الساق - ببقيّة الجسد. وأعرف أيضاً رهافة هذا الخصر الهفهاف المتين معاً، وانحداره الممتلئ بجسدانيّة النِّعَم.

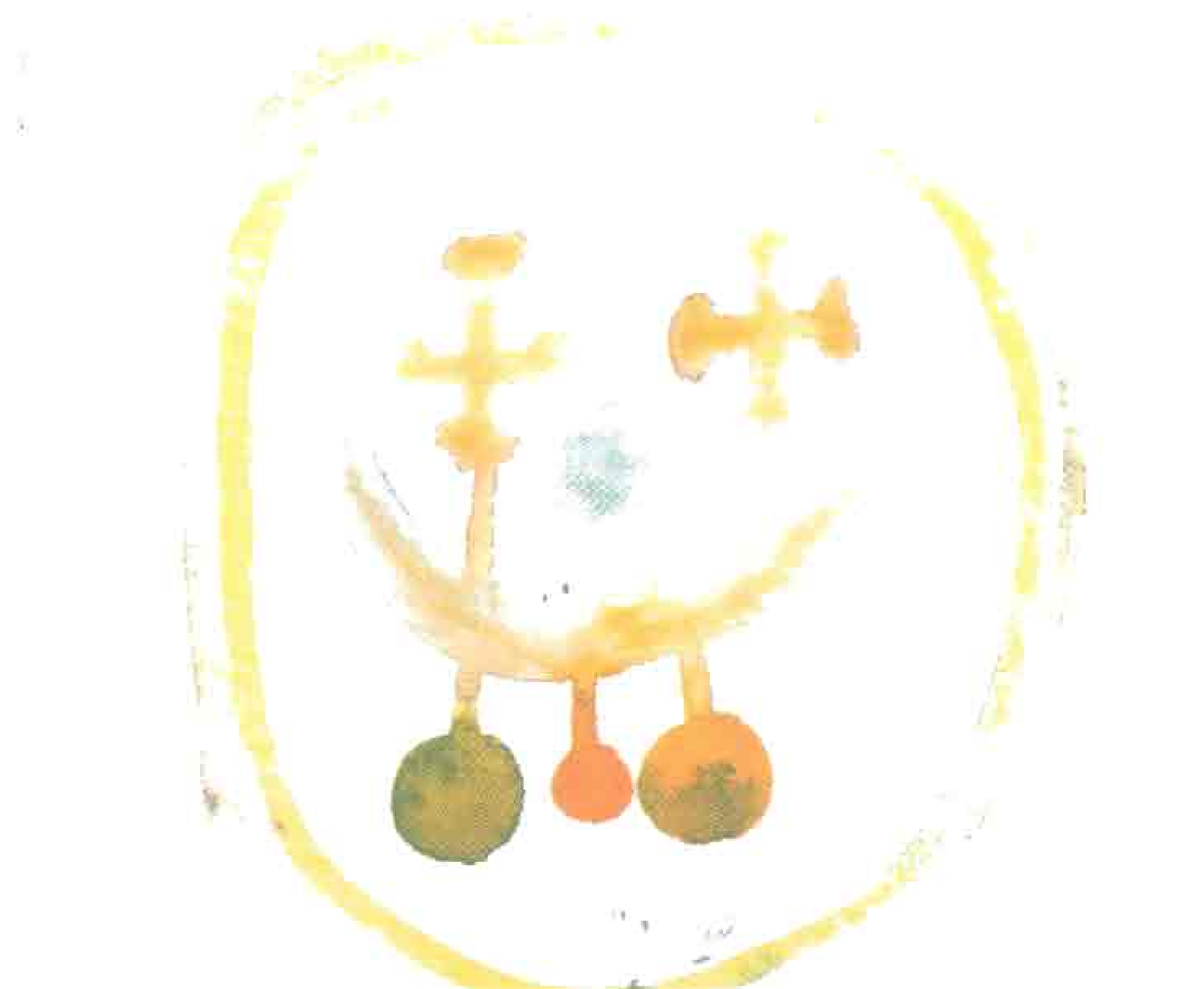

دار الآداب
هاتف ٨٠٢٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣